

دكتور ابراهيم أنيس

اللهجات العربية

الناشر : دار الفكر العربي



اهداءات ١٩٩٩

أ/ محمود محمد علي العيسوي

الإسكندرية

اللهجات العربية

تأليف

دكتور إبراهيم أنيس

B. A. و PH. D. (من جامعة لندن)

أستاذ مساعد بكلية دار العلوم

الناشر

دار الفكر العربي

مطبعة الرسالة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين و بعد :

فقد ترددت زمنا غير قصير قبل أن أقدم على نشر هذا الكتاب الذى يعرض للهجات العربية القديمة ، لأن البحث في مثل هذا قد يكون من عمل الهيئات العلمية ، ولا يقوم به فرد وحده . وذلك لتشعب الموضوع ، ووعورة الطريق إليه ، وما يحتاج من بحوث مستفيضة قد تنفد أعمار الأفراد دون أن تكمل ، أو يكشف عن كل غوامضها وأسرارها .

ولكنى حين رأيت انصراف أهل العلم فى مصر عن هذه الناحية من البحث اللغوى ، واكتفاءهم بترديد بعض الروايات الشائعة فى ثنايا كتب التاريخ والأدب ، دون فهم لها ، أو نظر فيها ، أو عناية بعرضها عرضا علميا صحيحا مؤسسا على أحدث النظريات التى قررها المحدثون فى دراسة اللهجات قديمها وحديثها ، أقول حين رأيت هذا أقدمت على نشر كتاب به أستحث الهمم على العناية بمثل هذه الدراسة ، راجيا ألا يمر زمن طويل قبل أن نرى بحوثا جليلة تكشف لنا عن كل أسرار اللهجات العربية .

وتعد دراسة اللهجات من أحدث الاتجاهات فى البحوث اللغوية . فلقد نمت هذه الدراسة بالجامعات الأوربية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، حتى أصبحت الآن عنصرا هاما بين الدراسات اللغوية الحديثة ، وأسست لنا

فى بعض الجامعات الراقية فروع خاصة بدراستها ، تعنى بشرحها ، وتحليل خصائصها ، وتسجيل نماذج منها تسجيلا صوتيا يبقى على الزمن .

وقد اعتمدت فى هذا الكتاب على المشهور من روايات الأقدمين التى جاءتنا مبتورة حينا ، وممسوخة حينا آخر ، لم تراع الدقة فى نقلها ، بل لم تنسب فى غالب الأحيان إلى قبائلها أو بيئاتها . ولست أعرف بين علماء العربية على كثرتهم ، وكثرة ما كتبوه فى كل فرع من فروع اللغة ، من عنى باللهجات فأفرد لها مؤلفا مستقلا يجمع شتاتها ، ويشرح غامضها ، وإنما هى روايات متناثرة نجدها فى بطون كتب الأدب واللغة والتاريخ .

وقد ظلت الحال هكذا حتى دوت صيحة للمرحوم حفنى ناصف بك ، فى رسالته الصغيرة التى سماها : « مميزات لغات العرب » ، والتى ألقاها فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد بمدينة فينا فى أوائل سنة ١٣٠٤ هجرية ، فكانت الصيحة الأولى ؛ ولكنها لم تحفز الهمم ، ولم تسمع المتصامين عن كل بحث جديد فى اللغة . فها هو ذا قد مضى على نشرها نحو ستين عاما ، دون أن نسمع لعالم آخر صوتا ، أو نرى له انتاجا فى هذا الشأن الجليل .

وقد كانت هذه الرسالة الصغيرة عمادنا فى كثير مما رويناه هنا ، بعد عرضه عرضا علميا مؤسسا على ما تقرره النظريات الحديثة فى دراسة اللهجات . ولعل صيحتى لا تذهب أيضا هباء ، ولعل جامعاتنا ومعاهدنا العلمية تعنى فيما بعد بهذه الدراسة الجليلة الشأن .

وستظل آراؤنا فى اللهجات القديمة مجال الجدل والنقد ، وأحكامنا عليها أقرب إلى الترجيح منها إلى اليقين ، ما لم تؤسس على أسس علمية صحيحة .

وما لم تتبع الطريق المستقيم فى دراستها . إذ لا بد لدراســة اللهجات العربية القديمة من الاعتماد على أسس ثلاثة :

أولاها : وأهمها دراسة اللهجات العربية الحديثة دراسة مستفيضة فى كل البيئات العربية . وليس هذا بالأمر الهين ؛ بل ليس هذا من عمل فرد واحد ، وإنما هو من عمل الهيئات والجماعات ، لأنه يتطلب السفر إلى تلك البيئات ، والإقامة فيهــا زمنا كافيا لتعرف خصائصها ، وما امتازت به . فهناك لهجات مصرية ، وأخرى عراقية ، وثالثة شامية ، ورابعة مغربية ، وأخيرا لهجة بلاد الجزيرة فى عصرنا الحالى . وفى كل بيئة من هذه البيئات لهجات حديثة يتكلم بها الناس ، وهى تشترك فى بعض الصفات ، ولــكنها تختلف فى أمور هامة تميز لهجة كل بيئة عن الأخرى ، حتى فى قراءتهم القرآن الـكريم قد نلحظ بعض الفروق الصوتية التى تميز المصرى من الشامى ، والشامى من العراقى وهكذا .

وربما كان السر فى تباين هذه اللهجات الحديثة أنها : أولا انحدرت من لهجات عربية قديمة متباينة . فلم تــكن القبائل التى نزحت إلى هذه البيئات ذات لهجة واحدة ، بل لقد وفدت إليها فى عهود الغزو الإسلامى وبعده ، ومعها لهجاتها المختلفة ، وأقامت بها وكل منها يحتفظ بخصائصه ومميزاته فى لهجات التخاطب التى تأثر بها أهل البلاد المفتوحة ، وبدأوا يحذون حذوها فى لهجات كلامهم وفى تخاطبهم .. هذا رغم أن تلك القبائل قد احتفظت جميعها باللغة النموذجية ، لغة الأدب والدين التى نزل بها القرآن الـكريم . فـكانوا بهــا يكتبون ويقرأون ، وينظمون الشعر ويخطبون . فإذا خــلوا إلى أنفسهم ، أو عنّ لهم من أمور حياتهم ما ليس بذى بال ، عبروا عنه بلهجتهم الخاصة ،

دون حرج أو تردد . فكلامهم فى حياتهم العادية كان يخالف إلى حد كبير لغة الكتابة والأدب التى كانوا يلجأون إليها فى المجال الجدى من القول .

وتلك اللهجات المتباينة التى وفدت من شبه الجزيرة قد غزت بيئات معمورة ، يتكلم أهلها لغات غير عربية ، منها القبطى والرومانى والفارسى والآرامى والبربرى وغير ذلك من لغات كانت شائعة فى البيئات التى تناولتها الفتوحات الإسلامية . وهنا كان لا بد من صراع بين اللهجات الغازية واللهجات المغزوة أدى فى معظم الحالات إلى انزواء اللهجات المغزوة ، أو القضاء عليها قضاء تاما . ولكنها لم تنزو ، أو لم يقض عليها إلا بعد أن تركت بعض الآثار فى اللهجات الغازية من الناحية الصوتية على الأقل . فتركت القبطية قبل انزوائها بعض الآثار الصوتية فى ألسنة المصريين حين تكلموا اللهجات العربية . وإذا علمنا أن القبطية ظلت يتكلم بها فى بعض النواحى المصرية حتى القرن السابع عشر[1] ، استطعنا أن ندرك إلى أى مدى يمكن أن تكون لهجاتنا الحديثة قد تأثرت ببعض الآثار القبطية من الناحية الصوتية .

وقد حدث ما يشبه هذا فى البيئة العراقية والشامية والمغربية وهكذا . وإذا أضيف إلى كل هذا أن اللهجات العربية الحديثة قد تطورت فى بيئاتها المختلفة تطورات مستقلة ، لما أحاط بها من ظروف اجتماعية مختلفة فى كل بيئة من تلك البيئات ، ولما طرأ عليها بعد الفتح العربى من ظروف سياسية اختلفت أيضا فى تلك البيئات ، فهناك آثار فارسية ، وأخرى تركية ، وثالثة أوربية (فرنسية وإيطالية بل وإنجليزية أيضا) ، إذا تذكرنا كل هذا عرفنا لماذا

(١) Mallon صفحة ١

اختلفت اللهجات العربية الحديثة فى نشأتها ، ورأينا هذا الاختلاف أمرا طبيعيا .

ومع هذا فقد احتفظت هذه اللهجات الحديثة ببعض الآثار القديمة التى يمكن أحيانا إرجاعها بسهولة إلى لهجات عربية قديمة ، وأحيانا يصعب هذا إلا بعد بحث دقيق ، ودراسة عميقة .

فمن الممكن مثلا أن يعزى النطق الخاص بالقاف فى نواحى بنى سويف والفيوم و بعض مديرية الجيزة وأهل أبيار ورشيد وضواحيها والمحلة الكبرى والبرلس و بلبيس ، للهجة فى قريش .

ومن الممكن أيضا أن ننسب إبدال الهمزة عينا بين سكان البوادى المصرية ، إلى لهجة تميم .

ومن الممكن أن ننسب ما نسمعه الآن من بعض أهل الشام والعراق حين يقفون على التاء المربوطة « بالتاء » إلى إحدى اللهجات القديمة التى روى عنها مثل هذه الظاهرة .

ومن الممكن أن نعزو كسر حرف المضارعة ذلك الأمر الشائع فى معظم اللهجات المصرية ، إلى قبائل مثل بهراء من قضاعة .

ومن الممكن أن ننسب الصيغة العامية « مديون » ، إلى لهجة تميم التى روى عنها مثل هذا .

ومن الممكن أن نعزو ميلنا إلى التسهيل فى الهمزة ، إلى قبائل حجازية .

ومن الممكن أن ننسب ما هو معروف عن نواحى المحلة الكبرى وما حولها وجزيرة بنى نصر وأبيار وكثير من مديرتى البحيرة و بنى سويف من ميلهم

إلى قطع أواخر الكلمات حين الوقف ، إلى لهجة طيء التى عرفت بهذا .

ومن الممكن أن ننسب الأمالة المشهورة فى كثير من نواحى الريف المصرى ، إلى قبائل مثل تميم وأسد .

فنحن نرى من هذا أن كثيرا من الصفات التى نلحظها الآن فى لهجاتنا الحديثة يمكن بعد الدراسة والتمحيص إرجاعها إلى لهجات عربية قديمة .

ولكمال الكشف عن كل أسرار اللهجات الحديثة ، لا بد من دراستها دراسة علمية صحيحة ، وتسجيل نماذج منها تسجيلا صوتيا ، لنعرف أولا ما تتصف به كل لهجة من خصائص . هذا ودراستنا لها يجب أن تبدأ وصفية ، نشرحها ونسجلها ونحلل أصواتها وكلماتها ، دون التعرض فى البدء إلى أى نوع من المقارنات ، أو الحكم على أية صلة لها بلهجة قديمة . فإذا فرغنا من الدراسة الوصفية التحليلية لكل لهجة من اللهجات الحديثة نكون قد خدمنا أغراضا جليلة : منها تسجيل لهجاتنا التى تكوّن مرحلة تاريخية من حياتنا الاجتماعية ومنها إشباع رغبة العلماء منا فى الدراسات الأكاديمية البحتة للهجات الحديثة ، ثم بعد هذا وفوق هذا تصبح تلك الدراسة نواة أو مادة نستغلها في دراسة اللهجات العربية القديمة .

ثانيها : دراسة القراءات القرآنية دراسة واسعة غير مكتفين فيها بما روى فى بطون الكتب ؛ بل يجب أن تطبق تلك الروايات على ما نسمعه فعلا من أفواه المجيدين للقراءات فى البيئات العربية المختلفة ، مستخدمين فى دراستنا النظريات الصوتية الحديثة ، والمقاييس والآلات التى تستخدم فى معامل علم الأصوات .

هذا إلى دراسة القراء وما روى عنهم ، والبيئات التى تأثروا بها أو نشأوا فى كنفها ، وما اختلطوا به من قبائل عربية . ثم نستخرج من هذه الدراسة ما مرجعه فن القراءات ، أو اجتهاد القدماء من القراء ، وما يمكن أن يعزى إلى لهجة قديمة أبيح القراءة بها ، أو ببعض خصائصها . فقد احتفظت لنا القراءات القرآنية بعناصر هامة مرجعها اختلاف اللهجات العربية القديمة ، ولا بد من نسبتها إلى قبائلها أو بيئاتها .

ثالثها : جمع الروايات المتناثرة فى بطون اللغة والأدب ، مما يمت إلى اللهجات القديمة بصلة ، ثم تمحيصها وتحقيقها وإصلاح ما فسد منها فى رواية مبتورة ، أو رواية ممسوخة ، سالكين طريقة تتبع السند التى عنى بها علماء الحديث لتميز الحق من الباطل ، والصحيح من الزائف . هذا إلى دراسة تاريخية مستفيضة لتنقلات القبائل قبل الإسلام وبعده ، وبيئاتها الاجتماعية فى العصور المختلفة ، وما خالطت من أمم أو شعوب .

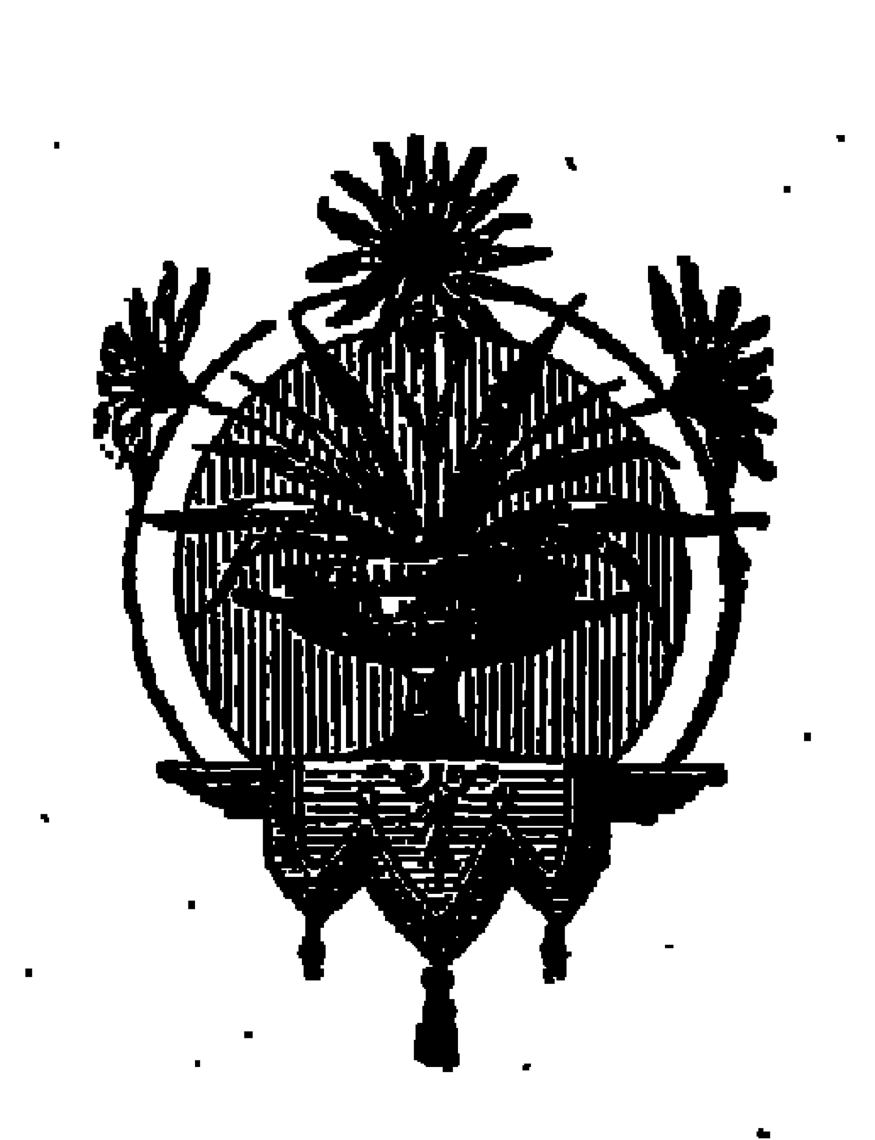
نرى من كل ما تقدم أن دراسة اللهجات القديمة ، والكشف عن أسرارها ، ونسبتها إلى قبائلها ، ليس بالأمر الهين اليسير . لأنه لا بد قبل البدء بها من جمع المادة لها ، وهذا الجمع يتطلب جهودا عظيمة يجب أن يقوم بها عدد من المشتغلين باللغات .

فإذا جمعت تلك المادة ، بدأنا مرحلة المقارنة ، واستنباط القوانين التى خضعت لها اللهجات العربية فى عصورها الأولى ، وقوانين تطورها بعد الفتح الإسلامي .

ولست أدعى فى كتابى هذا أنى قمت بقسط كبير مما ذكرت ، أو أنى اتبعت الطريق العلمى الدقيق التى يجب اتباعها فى دراسة اللهجات ؛ ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله .

ولعل المستقبل يكفل لنا بمساعدة الهيئات العلمية أن نجند لهذا العمل الضخم جميع المعنين بمثل هذه الدراسات ، حتى تكمل وتتم وفق الأصول العلمية الصحيحة .

ابراهيم أنيس



الفصل الأول

— ١ —

اللهجـــــة (*)

اللهجة فى الاصطلاح العلمى الحديث هى مجموعة من الصفات اللغوية تنتمى إلى بيئة خاصة ، ويشترك فى هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة . وبيئة اللهجة هى جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات ، لكل منها خصائصها ، ولكنها تشترك جميعا فى مجموعة من الظواهر اللغوية التى تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض ، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث ، فهماً يتوقف على قدر الرابطة التى تربط بين هذه اللهجات .

وتلك البيئة الشاملة التى تتألف من عدة لهجات ، هى التى اصطلح المحدثون على تسميتها باللغة . فالعلاقة بين اللغة واللهجة هى العلاقة بين العام والخاص . فاللغة تشتمل عادة على عدة لهجات ، لكل منها ما يميزها . وجميع هذه اللهجات تشترك فى مجموعة من الصفات اللغوية ، والعادات الكلامية التى تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات .

والمحدثون من علماء اللغات يسمون الصفات التى تتميز بها كل لغة بالعادات الكلامية ؛ لأنها ليست إلا مجرد عادات نشأ عليها أبناء هذه اللغة ، وتأثروا

(*) « Dialect »

بهـا جيلا بعد جيل حتى أصبحت طابعا لهم يميزهم عن غيرهم من المتكلمين بلغات أخرى . وتلك العادات الكلامية هي عادات مكتسبة ، لا أثر للوراثة فيها ، يلقنها الطفل منذ يولد ، وينشأ عليها ، فيؤديها كلما عنّ له القول ، ولا يحيد عنها في حديثه . وهو في تأديته لهـا لا يشعر بخصائصها ؛ بل تصدر عنه دون تكلف أو تعمد ؛ وذلك هو ما اصطلح القدماء والمحدثون على تسميته الكلام بالسليقة . فشرط السليقة اللغوية ألا يشعر المتكلم بصفات كلامه وخصائصه ، وإنما هو يفكر فينطق معبرا عما فكر فيه بمجاميع من الأصوات ركبت تركيبا خاصا ، ولا غرض له يرمى إليه من كلامه سوى إفهام السامع ما يعنى ، دون أن يشعر بكيفية صدور هذه الأصوات عنه ، أو تركبها ذلك التركيب الخاص . فإذا شعر بهذا ، وتعمده ، أو قصد إلى تأدية الكلام وهو شاعر بصفاته وخصائصه ، خرج الكلام عن كونه سليقة ، وعدّ المتكلم أجنبيا عن اللغة . فمثل الكلام في هذا مثل كل العادات المكتسبة التي تصبح بعد تكررها ، والاعتياد عليها ، تؤدى دون شعور بكيفية أدائها . والمشى هو من بين تلك العادات المكتسبة ، يتعلمه الطفل في المراحل الأولى ، ويجد في تعلمه مشقة وعنتا ، ثم لا يلبث أن يصبح له عادة ، يؤديه دون أن يشعر بمشيته أو كيف يقوم بها .

وكذلك اللغات ، يبدأ الطفل بتعلمها وهو شاعر بكل صوت من أصوات من حوله ، وكيفية تركب هذه الأصوات ، فيظل يحاول تقليدها ، وإتقانها ، حتى تنتهى مرحلة خاصة في نموه ، بعدها يستطيع الكلام بالسليقة ، لأنه حينئذ يفقد الشعور بصفات كلامه ، وخصائصه . فالأطفال في مراحل تعلمهم لغة

آبائهم لا يتكلمونها بالسليقة ، وإنما يتعلمونها كما يتعلم الكبير أية لغة أجنبية ، مع ذلك الفارق الهام الذى يسرع بالطفل إلى إتقان لغة أبوية ، وهو تلك الفرص المستمرة التى تتاح للطفل فى تعلمه ، من اتصاله الوثيق ببيئته اللغوية .

ويقسم المحدثون تلك العادات الكلامية فى دراستها إلى فروع ثلاثة :

ا — ما يتعلق بالأصوات وطبيعتها ، وكيفية صدورها « Phonetics »

ب — وما يتعلق ببنية الكلمات ونسجها « Morphology » .

حـ — وما يتعلق بتركيب الجمل « Syntax » .

فالصفات التى تتميز بها كل لغة تتألف من هذه العناصر اللغوية الثلاثة .. والبحث فى عادات كل لغة يعرض إلى كل منها .

وهناك فرع رابع يعرض له الباحث فى اللغات ، وهو معانى الكلمات ، ودلالتها « Semantics » . والبحث فى هذا لا يقل أهمية عن البحث فى العناصر الأخرى ، وإن لم يعد فى نظر المحدثين من مقومات العادات الكلامية ؛ لأن المتكلم يشعر بمعانى كلماته ، ويتخير منها ما يروق فى أثناء حديثه . وعلى قدر توفيقه فى تخيرها يحسن حديثه ، ويترك الأثر المرجو من الكلام فى سامعيه . لأن المعانى هى أغراض الكلام التى يهدف إليها كل متكلم ، لتتحقق غاياته فى الاتصال بأبناء جنسه ./

أما الصفات التى تتميز بها اللهجة فتكاد تنحصر فى الفرع الأول ، أى الأصوات وطبيعتها ، وكيفية صدورها . فالذى يفرق بين لهجة وأخرى ، هو بعض الاختلاف الصوتى . /

وتتميز بيئة اللهجة بصفات صوتية خاصة تخالف كل المخالفة أو بعضها ،

صفات اللهجات الأخرى فى اللغة الواحدة . غير أن اللهجة قد تتميز أيضا بقليل من صفات ترجع إلى بنية الكلمة ونسجها ، أو معانى بعض الكلمات . ولكن يجب أن تكون هذه الصفات الخاصة التى مرجعها بنية الكلمات ودلالتها ، من القلة بحيث لا تجعل اللهجة غريبة على أخواتها ، بعيدة عنها ، عسرة الفهم على أبناء اللهجات الأخرى فى نفس اللغة . لأنه متى كثرت هذه الصفات الخاصة ، بعدت باللهجة عن أخواتها ، فلا تلبث أن تستقل وتصبح لغة قائمة بذاتها .

فلا بد أن تشترك لهجات اللغة الواحدة فى الكثرة الغالبة من الكلمات ومعانيها ، وفى معظم الأسس التى تخضع لها بنية الكلمات ، وفوق هذا وذاك فى تركيب الجمل . فإذا اختلفت معانى معظم كلماتها ، واتخذت أسسا خاصة فى بنية كلماتها ، وقواعد خاصة فى تركيب جملها ، لا تسمى حينئذ لهجة ، بل لغة مستقلة وإن ظلت تتصل وغيرها بوشائج تجعلها جميعا تنتمى إلى فصيلة واحدة من الفصائل اللغوية .

فالفصيلة اللغوية تتألف من عدة لغات ، ترجع جميعها إلى أرومة واحدة ، وقد احتفظت كل منها بصفات يسهل على اللغوى إرجاعها إلى ذلك الأصل القديم . والعناصر التى تحتفظ بها لغات الفصيلة الواحدة هى تلك العناصر الخالدة التى لا يصيبها إلا قليل من التغير رغم مرور الزمن عليها ، ورغم تطور فروع الفصيلة الواحدة .

وتلك العناصر القديمة تكاد تنحصر فى الأمور الآتية :

١ — الضمائر .

٢ — الأعداد .

٣ — أسماء الإشارة والموصول .

٤ — الاشتراك فى معانى نسبة كبيرة من الكلمات .

٥ — أدوات الربط بين أجزاء الجملة .

٦ — الاشتراك فى كيفية تركيب الجمل .

وتتألف اللغة عادة من عدة لهجات ، تتميز كل لهجة منها بصفات صوتية خاصة ، يضاف إليها فى بعض الأحيان اختلاف ضئيل فى بنية بعض الكلمات ومعانيها .

أما تلك الصفات الصوتية التى تميز اللهجات ، فيمكن أن تلخص فى النقط الآتية :

١ — اختلاف فى مخرج بعض الأصوات اللغوية .

٢ — اختلاف فى وضع أعضاء النطق مع بعض الأصوات .

٣ — اختلاف فى مقياس بعض أصوات اللين[1] .

٤ — تباين فى النغمة الموسيقية للكلام .

٥ — اختلاف فى قوانين التفاعل بين الأصوات المتجاورة حين يتأثر بعضها ببعض .

٦ — اختلاف فى صفة بعض الأصوات اللغوية ، من جهر وهمس ، أو شدة ورخاوة .

تلك هى أهم الصفات التى نلحظ بعضها أو كلها بين لهجات اللغة الواحدة .

---

(١) أصوات اللين اصطلاح على حديث لما يسمى بالحركات طويلها وقصيرها انظر للمؤلف كتاب « الأصوات اللغوية » صفحة ٣٠ .

وليس من الضرورى أن نجد كل هذه الفروق ممثلة فى لهجات لغة من اللغات ، بل قد نشهد بعضا منها فقط .

وتتباعد اللهجات أو تتقارب بعضها من بعض ، على قدر اشتمالها على الصفات السابقة ، وعلى قدر شيوع تلك الصفات فيها . فقد يكون للغة الواحدة لهجات متقاربة ، لا يفرق بين لهجة وأخرى منها سوى صفتين أو ثلاث من تلك الصفات . فى حين أن لهجات بعض اللغات متباعدة لا تكاد تستبين للسامعين ، ولا يكاد يفهمها كل الأفراد فى شعب من الشعوب .

ومن العسير أن نضع حدا أدنى للفروق بين لهجات اللغة الواحدة ، متى وجد امتازت لهجة عن أختها ، أو قيل إن هذه لهجة ، وتلك لهجة أخرى ، وكلاهما فى لغة واحدة . نعم من العسير وضع هذا الحد الأدنى ، لأن عملية النطق ليست إلا نشاطا عضليا يختلف أداؤه باختلاف أفراد البيئة اللغوية الواحدة . وقد برهنت التجارب الدقيقة التى قام بها علماء الأصوات اللغوية على أنه لا يكاد يوجد شخصان فى بيئة واحدة ينطقان نطقا متماثلا تمام التماثل ، بل لابد أن تلحظ الأذن المدربة بعض الفروق الصوتية الدقيقة . وقد ظهر هذا جليا حين سجل نطق بعض الأفراد فى البيئة اللغوية الواحدة . بل إن من العلماء من يؤكدون أن المرء نفسه يختلف نطقه بعض الاختلاف فى كل مرة يتكلم فيها وإن اشتركت نفس الكلمات فى قوله . وذلك لأن عضلات النطق لا تؤدى عملها بنفس الصورة فى كل مرة . على أن مثل هذه الفروق الدقيقة بين نطق المرء ونفسه فى ظرفين متماثلين ، أو بين أبناء اللهجة الواحدة ، ليست من الأهمية فى الدراسة اللغوية بحيث نعنى بها ، ونحللها ونشرحها . وإنما يكتفى اللغوى عادة

بملاحظة تلك الصفات العامة التى تميز لهجة من اللهجات ، والتى يشترك فيها كل أفراد تلك اللهجة ، وهى تلك الصفات التى نراها ممثلة دائماً فى كلامهم ، تصدر عنهم بالسليقة دون تكلف أو تعمد .

هذا إلى أن الظروف الاجتماعية فى البيئة الواحدة قد تقسم اللهجة الواحدة إلى شعب ، يلحظ الفرق بينها ذوو الملاحظة السمعية الدقيقة . فقد يختلف النطق بين أسرة وأخرى ، وبين أصحاب حرفة من الحرف وغيرهم من أصحاب الحرف الأخرى ، وهكذا لا يكاد ينتهى مثل هذا التشعب فى اللهجة الواحدة . لهذا اكتفى المحدثون بالنظرة العامة لصفات اللهجة جميعها ، تلك الصفات البارزة المقومة للهجة والتى تميزها عن غيرها من اللهجات .

ولهذا كله كان من العسير تحديد الحدّ الأدنى الذى تتميز به اللهجات ، وإنما يمكن أن يقال إنه متى برزت صفات خاصة ، واتضحت للسامعين ، وظهر اختلافها عن صفات البيئات الأخرى للغة الواحدة ، أمكن القول إن هناك لهجة قد نشأت وتميزت . وتدرس حينئذ على أنها لهجة مستقلة . وليس هناك رابط بين اللهجة الواحدة ككتلة متميزة ، وبين سعة بيئتها أو عدد سكانها . فقد تتكون لهجة مستقلة فى بيئة جغرافية ضيقة قليلة السكان . غير أننا نلحظ بصفة عامة ، أن اللهجات القديمة كانت منعزلة فى بيئات ضيقة قليلة السكان ، فى حين أن اللهجات الحديثة قد اتسعت رقعتها ، وكثر المتكلمون بها .

— ٢ —

كيف تتكون اللهجات

هناك عاملان رئيسيان يعزى إليهما تكوّن اللهجات فى العالم وهما :

(ا) الانعزال بين بيئات الشعب الواحد .

(ب) الصراع اللغوى نتيجة غزو أو هجرات .

وقد شهد التاريخ نشوء عدة لهجات مستقلة للغة الواحدة ، نتيجة أحد هذين العاملين أو كليهما معاً .

فحين نتصور لغة من اللغات قد اتسعت رقعتها ، وفصل بين أجزاء أراضيها عوامل جغرافية ، أو اجتماعية ، نستطيع الحكم على إمكان تشعب هذه اللغة الواحدة إلى لهجات عدة . فقد تفصل جبال أو أنهار أو صحارى أو نحو ذلك ، بين بيئات اللغة الواحدة . ويترتب على هذا الانفصال قلة احتكاك أبناء الشعب الواحد بعضهم ببعض ، أو انعزالهم بعضهم عن بعض ، ويتبع هذا أن تتكوّن مجاميع من البيئات اللغوية المنعزلة التى لا تلبث بعد مرور قرن أو قرنين أن تتطور تطوراً مستقلا ، يباعد بين صفاتها ، ويشعبها إلى لهجات متميزة . إذ لابد من تطور الكلام وتغيره على مرور الزمن . ولكن الطريق الذى يسلكه الكلام فى هذا التطور يختلف من بيئة إلى أخرى ؛ لأن ظروف الكلام تختلف بين البيئات المنعزلة . ولو أمكن أن تتحد تلك الظروف لاتّخذ الكلام طريقاً واحداً فى تطوره ، وشكلا واحداً فى تغيره ، ولظلت البيئات المنعزلة ذات لهجة واحدة لا تتشعب إلى صفات متباينة ، ولكن الواقع المشاهد أن

البيئات متى انعزلت اتخذت أشكالا متغايرة فى تطور لهجاتها . فليس للانعزال الجغرافى وحده كل الأثر فى تكوّن اللهجات ؛ بل يجب أن يضم إليه الانعزال الاجتماعى ، واختلاف الظروف الاجتماعية بين البيئات المنعزلة . فمن بين هذه البيئات المنعزلة ما تتخذ فيها العلاقة بين أفراد الأسرة شكلاخاصاً ونظاماً خاصاً. ومنها ما قد تشتهر فيه مهنة خاصة ، أو تتصف بطبيعة خاصة فى تربتها تصلح لنوع خاص من الزراعة أو الصناعة . فأبناء البيئات الزراعية لهم من الظروف الاجتماعية ما يخالف ظروف أبناء البيئات الصناعية أو التجارية .

فتلك الظروف الاجتماعية التى لا تكاد تقع تحت حصر ، هى التى تساعد الانعزال الجغرافى على اختلاف الطريق الذى يسلكه الكلام فى تطوره .

وكما أن هناك اختلافاً بين الظروف الاجتماعية ، فى البيئات المنعزلة من المملكة الواحدة ، هناك عوامل اشتراك بينها جميعاً ، قد ترجع إلى رابطة سياسية ، أو نعرة قومية ، أو اتجاه خاص فى التفكير . وتلك العوامل المشتركة بين بيئات المملكة الواحدة ، هى التى تحافظ على استمرار نوع من الوحدة بينها ، وتعرقل من ذلك التغير الذى قد يباعد بين بيئاتها . ولا يزال الأمر بين عوامل انفصال ، وعوامل اتصال ، هذه تباعد بين اللهجات ، وتلك تقرب بينها. ولكن الغلبة فى جميع الأمثلة التاريخية كانت دائماً لعوامل الانفصال فى آخر الأمر ، فتشعبت اللغات إلى لهجات ، واستقلت اللهجات وتميزت بعضها عن بعض ، ولكن كان لابد لهذا التشعب من زمن طويل حتى يتحقق وجوده .

وخير مثل يمكن أن يضرب لهذا الانعزال الذى يشعب اللغة الواحدة إلى لهجات ، تلك اللهجات العربية القديمة فى جزيرة العرب قبل الإسلام . وأخذت

الأمثلة لهذا الانعزال ما حدث للأسبانية والإنجليزية حين انتشر كلاهما فى بقاع بعيدة ، الأولى فى أمريكا الجنوبية ، والثانية فى أمريكا الشمالية . وبدأنا الآن نلحظ فروقاً صوتية بين أسبانية أوربا وأسبانية أمريكا ، وإنجليزية أوربا وانجليزية أمريكا .

فانتشار اللغة الواحدة فى بيئات منعزلة يكوّن لهجات لا تلبث أن تستقل وتتميز بصفات خاصة .

أما العامل الرئيسى الثانى لتكوين اللهجات فهو الصراع اللغوى نتيجة غزو أو هجرات إلى بيئات معمورة . فقد يغزو شعب من الشعوب أرضا يتكلم أهلها لغة أخرى ، فيقوم صراع عنيف بين اللغتين الغازية والمغزوة ، وتكون النتيجة عادة إما القضاء على إحدى اللغتين قضاء يكاد يكون تاما ، أو أن ينشأ من هذا الصراع لغة مشتقة من كلتا اللغتين الغازية والمغزوة ، تشتمل على عناصر من هذه وأخرى من تلك .

وقد حدثنا التاريخ عن أمثلة كثيرة للصراع اللغوى . فقد غزا العرب جهات كثيرة متعددة اللغات واستطاعت اللغة العربية آخر الأمر أن تصرع تلك اللغات فى معهدها ، وأن تحل محلها . فقد تغلبت على الآرامية فى العراق والشام ، وعلى القبطية فى مصر ، والبربرية فى بلاد المغرب ، والفارسية فى بعض بقاع مملكة فارس القديمة .

كما يحدثنا التاريخ أن غزو الرومان لجهات كثيرة فى أوروبا ، جعل الرومانية تحل محل عدة لغات كان يتكلم بها فى تلك الجهات .

وقد استعرض المحدثون من علماء اللغات الأمثلة التاريخية للصراع اللغوى

فرأوها أنواعا ، وقد رأوا أن نتيجة الصراع تختلف حسب كل نوع وظروفه :

(١) فهناك غزو كان الغزاة فيه قليلى العـدد ، قد اقتصر على جيش قوى كامل العدة ، ظهر تفوقه ساعة القتال ، فلما وضعت الحرب أوزارها ، وبدأ الغزاة حياة سلمية مع أهل الأرض المغزوة ، ظهرت قلتهم ، وضعف أثرهم ، وبدأ المستوطنون منهم يهجرون لغتهم الأصلية ، متأثرين بلغة البيئة الجديدة . غير أن اللغة المغزوة قد تستعير فى مثل هـذه الحالة بعض الـكلمات والأساليب من اللغة الغازية ، كتلك التى تعبر عن نظام الحـكم ، وأمور الجيش ونحوذلك . وخير مثل لهـذا غزو النورمنديين لانجلترا فى القرن الحادى عشر ، إذ تغلبت اللغة الانجليزية على لغة الغزاة بعد زمن مّا ، وقد تركت النورماندية الفرنسية آثارا ضئيلة باللغة الانجليزية . ويطول زمن الصراع أو يقصر فى مثل هـذه الحالة ، حسب قرب اللغتين الغازية والمغزوة إحداهما من الأخرى ، وعلى قدر اعتزاز الغزاة بوطنهم الأصـلى ، وتمسكهم بتقاليدهم وعاداتهم ، ومقدار اختلاطهم بالشعب المغزو .

(٢) وهناك غزو كثر الغزاة فيه ، وتبعه موجات من هجرات لذلك الشعب الغازى ، جاءت بطوائف كثيرة من الناس ، يستعمرون الأرض ، ويشتركون فى مهنها وحرفها ، ويلتمسون الرزق من مواردها ، زراعة أو صناعة ، فلا يدعون مجالا لاجتلاب الخير إلا طرقوه ، ولا موردا للحصـول على نفع إلا أسرعوا إليه .

وفى مثل هذه الحالة نرى الغزاة يكونون الطبقة العليا والوسطى ، فى حين أن من قهروا فى عقر دارهم يكونون الطبقة الدنيا ، تلك الطبقة الضعيفة المقـلدة

التى تعتز بصفات الغالب ، وبكل ما جاء به ، ومن بين ذلك اللغة . فلا تلبث اللغة المغزوة فى صراعها إلا زمنا قصيراً بعده تنهزم تاركة آثارا ضئيلة جدا فى اللغة الغازية التى تشيع بين الناس ، وتصبح لغة الخاص والعام . وتكاد تنحصر تلك الآثار التى تخلفها اللغة المغزوة فى صفات صوتية خاصة ، أو بضع كلمات تعبر عن مهن حقيرة ، أو عن أشياء اختصت بها البيئة المغزوة من حيوان أو نبات . وخير مثل لهذا ، غزو الانجلوساكسون لبلاد الانجليز قديما ، ذلك الغزو الذى قضى على اللغة « السلتيه » القديمة التى تركت آثارا ضئيلة جـداً فى اللغة الانجليزية الغـازية .

(٣) أما هجرة شعب إلى أرض معمورة ، دون غزو منظم تقوم به جيوش محاربة ، وإنما الأمر أمر منافسة فى طلب العيش ، فقد حدثت أمثلة له فى العصور التاريخية ، حين هاجر قوم من الساميين إلى بلاد ما بين النهرين ، وكونوا على أنقاض السومريين ، تلك المملكة التى عرفت فيما بعد بمملكة البابليين والأشوريين . وقد قضت هذه الهجرة السامية على اللغة السومرية بعد أن تركت فى اللغة السامية آثارا ، وأحدثت بها أحداثا جعلتها تباين أخواتها السامية فى جهات أخرى .

واحتكاك اللغات الغازية ومعها لهجاتها المتباينة ، باللغات المغزوة التى تشتمل على لهجات أيضا ، يولد لنا أنواعا جديدة من اللهجات . فنحن حين نستعرض اللهجات العربية الحديثة ، نراها قد اتخذت فى مصر شكلا من الأشكال يباين ذلك الذى اتخذته فى العراق أو الشام أو بلاد المغرب .

ويمكن أن تعزى تلك المباينة بين اللهجات العربية الحديثة إلى اختلاف لهجات الغزاة من العرب ، وإلى التطور المستقل فى تلك البيئات الجديدة ، وفوق هذا

وذلك إلى أثر اللغات الأصلية فى هذه البيئات . فقد تركت القبطية قبل زوالها آثارا فى العربية المصرية ، كما تركت الآرامية آثارا مباينة فى عربية بلاد الشام ، وكما تركت البربرية آثارا أخرى فى عربية بلاد المغرب وهكذا .

من أجل هذا نشهد الآن لهجات متباينة فى البلاد العربية .

فاللهجات تتكون من انتشار اللغة ، واتساع رقعتها ، ومن كل صراع لغوى نتيجة الغزو والهجرات .



الفصل الثانى

— ١ —

اللغة العربية قبل الاسلام

حين نعرض للغة العربية قبل الإسلام ، لا نريد أن نذهب إلى أبعد من تلك العصور الجاهلية التى رويت لها آثار أدبية من شعر أو نثر .

والذى تحققت صحته من تلك الآثار الأدبية ، لا يكاد يجاوز قرنا أو قرنين قبل ظهور الإسلام . وقد ظلت تلك الآثار الأدبية تتناقلها الألسن ، وتعيها الحافظة زمنا ليس بالقصير . ومهما يكن من عناية العرب بآدابهم ، واعتمادهم على الذاكرة ، حين فقدت وسائل التدوين ، وشاعت الأمية بينهم ، مهما يكن من قوة هذه الذاكرة ، فلا شك أن تلك الآثار قد اعتورها من عوامل النقص والزيادة ، وضعف الرواية فى بعض الأحيان ، ما جعل العلماء قديمهم وحديثهم يتشككون فى صحة بعض تلك الآثار ، أو على الأقل فى نسبتها لأصحابها . لأنه قد مرت فترة تزيد على قرنين بين عهد أنشئت فيه تلك الآثار وعهد التدوين .

والتاريخ السياسى والاجتماعى لجزيرة العرب قبل الإسلام ، غامض فى كثير من نواحيه ، وما روى عنه فيما بعد قد اشتمل على كثير من الروايات التاريخية التى تعوزها دقة الرواية والتحقيق العلمى . ومع هذا فنستطيع مما

يروى لنا أن نتصور جزيرة العرب فى الجاهلية منقسمة إلى بيئتين تكادان تكونان مستقلتين من الناحيتين الاجتماعية والثقافية: البيئة الأولى بيئة الحواضر فى مكة ويثرب وفى مدن اليمن الكبرى ، والبيئة الأخرى البيئة البدوية المتنقلة المنعزلة التى لا تكاد تستقر على حال .

ورغم تلك العوامل السياسية والاجتماعية التى قربت بين البيئتين قبل الإسلام ، من مواسم للحج ، وأسواق للتجارة ، قد ظل النظام فى البيئة البدوية قبليا ، فيه الاعتزاز بالقبيلة ورئيسها ، وما يمكن أن يكون فيها من تقاليد خاصة تمسكوا بها وذادوا عنها . ولم يتوثق الاتصال بين هاتين البيئتين إلا قبيل الإسلام ، بعد أن ظلت الجزيرة عشرات من السنين قبل هذا مفككة الصلات ، تكونت فيها جماعات من الناس استقلت بحياتها وتقاليدها ، وانعزلت بعضها عن بعض .

فأبعد ما يمكن أن نتصوره لجزيرة العرب هو أن نراها مكونة من وحدات منعزلة تتمثل فى قبائلها . وانعزال تلك القبائل بعضها عن بعض ، واستمساكهم بنظمهم وتقاليدهم ، قد أدى إلى نشأة اللهجات العربية القديمة التى روى لنا طرف منها فى كتب اللغة والأدب والتاريخ . ورغم اشتراك القبائل فى بعض النظم الإجتماعية ، قد دعت تقاليدها الخاصة ، وبيئاتها الجغرافية الخاصة ، إلى تطور مستقل فى لهجاتها ، وكان من نتيجته تلك الصفات الخاصة التى نلحظها فى لهجة كل قبيلة . فالقبيلة التى دعت ظروفها إلى شن الغارات وإلى التفرقة بين المرء وأهله ، وبعد الأطفال عن رعاية أهليهم ورقابتهم ، ليست كتلك التى ظلت زمانا طويلا هادئة وادعة قد توثقت فيها الصلة بين

أفراد الأسرة . لأنه فى الأولى ينشأ الأطفال منعزلين قليلى الاحتكاك والاتصال برجال القبيلة . ومثل تلك الحال تساعد على نمو تلك التطورات اللغوية التى يعزوها المحدثون عادة إلى الأطفال وأخطائهم . فإذا مرّ جيل أو جيلان رأينا تلك التطورات التى لم تكن فى بادىء الأمر إلا أخطاء أطفال لم تصلح فى حينها ، قد أصبحت فيما بعد عنصرا صحيحا معترفا به بين المتكلمين بهذه اللهجة . هذا إلى ماقد يكون للأمهات من أثر فى تطور اللهجة من حال إلى حال . وكل هذا نتيجة الانعزال بين رجال القبيلة ونسائها وأطفالها لظروف اجتماعية خاصة .

أما حيث تتوثق الصلة بين أفراد القبيلة فنلحظ أن التغير يكون بطيئا ، ولكنه ينمو أيضا مع الزمن . لأن الكلام عملية عضلية لا تؤدى دائما بشكل واحد ، فلا تلبث الأجيال المتعاقبة أن تتوارث صورا مختلفة منه ، ثم تتراكم تلك الاختلافات حتى تصبح صفة خاصة لتلك اللهجة .

فاللهجات العربية القديمة هى نتيجة انعزال القبائل أولا ، ونتيجة التطور المستقل لكلام كل قبيلة ثانيا . ولا بد من مرور زمن طويل قد يبلغ قرنين أو ثلاثة قبل أن تتبلور تلك الصفة وتصبح من مميزات قبيلة من القبائل .

وليس يعنينا هنا البحث عما كانت عليه تلك اللهجات القديمة قبل العصور الجاهلية التى روى لنا الشىء الكثير عنها ، ولا البحث عن المراحل التى مرت بها حتى صارت على الصورة التى رويت لنا فى كتب التاريخ والأدب . وإنما الذى نهدف إليه هنا هو أن نصور تلك اللهجات التى نعرفها من روايات الرواة تصويرا علميا صحيحا بقدر الإمكان .

نحن إذن أمام لهجات مستقلة ذات صفات خاصة ، تميزت بها القبائل

العربية قبل ظهور تلك العوامل السياسية التى أدت آخر الأمر إلى ظهور الاسلام . فلما دعت الحاجة إلى اتصال تلك القبائل فى مواسم الحج قبل الإسلام وإلى عقد تلك المؤتمرات الثقافية التى سميت بالأسواق ، بدأت الحاجة إلى وسيلة للتفاهم تجمع بين تلك القبائل . وهنا نشهد ما يحدث عادة بين البيئات المنعزلة حين تبغى الوحدة ، إذ تتخذ مركزاً واحداً تتطلع إليه ، وتطمئن إليه ، لما يمتاز به من نهضة فى الثقافة ، أو نفوذ سياسى .

وليس هناك ما يقرب بين الجماعات المتنافرة ، كاللغة الموحدة التى تجمع شملهم وتلم شتاتهم .

فلما بدأت عوامل الوحدة السياسية والثقافية بين القبائل تهيأت كل الظروف لجعل مكة مركزا لتلك الوحدة ، وبدأ رؤساء القبائل يفدون إليها يحجون ذلك البيت الذى قدسوه قبل الإسلام ، كما وفدوا للتجارة ، وليشهدوا منافع لهم فى أسواق كانت مجالا للثقافة بين القبائل ، فيها تعقد المناظرات الأدبية والمساجلات من شعر أو خطابة .

وليؤدى الخطيب رسالته كاملة واضحة ، وليترك سامعيه مشدوهين معجبين بقوله وبلباقته ، كان عليه أن يتحاشى تلك الصفات الخاصة التى تتصل بلهجة من اللهجات ، وأن يتحدث إلى القوم بلغة تواضعوا عليها ، وألفوها جميعا . كذلك كان لا بد لأولئك الشعراء الذين جاءوا من بيئات متباينة أن ينظموا شعرهم بلغة خالية من عنعنة أو عجعجة أو كشكشة ، لينال إعجاب سامعيه ، ولا يكون موضع سخريتهم وهزئهم . وإلا فكيف كان من الممكن أن

يفضل شاعر على شاعر في تلك المناظرات إذا كان المقياس مختلفا ، وأداة القول متباينة .

لهذا توحدت القبائل فى لغة أدبية ممتازة مختارة الألفاظ يعمد إليها الشاعر والخطيب كلما عنّ له القول . وتلك كانت اللغة النموذجية ، لغة الخاصة من الناس ، اللغة التي استحقت أن تروى آثارها ، و يعتز بها زمانا طويلا .

وظلت مع هذا كل قبيلة تتمسك بلهجة كلامها فى الخطاب العادى بين أفراد القبيلة بعضهم مع بعض . فالوحدة اللغوية بدأت قبل ظهور الإسلام ؛ بل ونمت وازدهرت ، وعرف كثير من العرب من قبائل مختلفة بفصاحة القول وإجادة الشعر . لأن إتقان تلك اللغة الأدبية كان موضع فخر بين رؤساء القبائل والخاصة من الناس ، يحاولون إتقانها والتفنن فى نواحى القول بها .

وعلى هذا إذا قيل لنا إن القرآن الكريم قد تحدى الفصحاء من العرب ، فليس يعني هذا أنه تحدى جميع العرب ؛ وإنما قد تحدى أولئك الذين كرسوا حياتهم على نواحى القول فأجادوها خطابة وشعرا ، أولئك الذين هم خاصة العرب والمثقفون منهم . وليست كل الثقافة قراءة أو كتابة ، فربما كان بين الأميين مثقفون تفتقت أذهانهم ، ونظروا إلى الحياة نظرة أوسع وأشمل من كثير ممن يحسنون تلك الوسيلة الناقصة التي تسمى بالكتابة .

وأهم وسيلة فى الثقافة اللغوية هي تلك الوسيلة الطبيعية التي عن طريقها تعلمنا الكلام ، أعني وسيلة السماع . فهى أسرع وأدق من وسيلة الكتابة والقراءة ، ولكن نفعها مقصور على السامعين ، وعلى أولئك الذين تتاح لهم الفرص ليشهدوا مجال القول ممن وهبوا اللباقة فى الكلام ، والذلاقة فى اللسان .

وإذا كان للقراءة والكتابة فضل فهو الشمول ، واتساع دائرة الثقافة . لهذا كانت الثقافة اللغوية فى الجاهلية مقصورة على أولئك الذين شهدوا مجالس الخطابة والشعر ، وهم الخاصة من الناس .

ولما جاء الإسلام ، ونزل القرآن بتلك اللغة الأدبية قوّى من تلك الوحدة اللغوية التى كانت قد نمت وازدهرت قبل نزوله ، وزاد فى شمولها لأن الرغبة الدينية ، وقوة الشعور الدينى قد دعا كثيرا من العامة إلى تفهم الكتاب الكريم والتعبد به . ولم يكن الأسلوب القرآنى فى متناول جميع العرب ، بل كان أسمى من هذا وأرقى . فقد جاء يتحدى الخاصة منهم ، وظل حتى الآن يتحدى الخاصة منا . ولم يمنع هذا أن يبجل فى كل جيل ، وأن يتعبد به فى كل زمان .

ولا معنى لأن ننساق مع الرواة الأقدمين فننسب لكل العرب الفصاحة فى القول ، والإجادة فى صناعة الكلام ، إذ ليس العرب إلا شعبا ككل الشعوب فيهم القليلون ممن وهبوا تلك الصفة ، وأغلبهم من العامة الذين يكتفون فى حياتهم بنصيب ضئيل من حسن القول وفصاحته .

وتلك اللغة الأدبية التى خطب بها الخطباء ، وشعر بها الشعراء ، ونزل بها القرآن الكريم ، لم تكن لغة تخاطب الناس فى حياتهم العامة ، بل يجب أن تنزه عن هذا ، وأن نرقى بها إلى مستوى أرفع منزلة من أساليب التخاطب . لم تكن إذن لغة سليقة يتكلمها الناس دون شعور بخصائصها ، بل كان المتكلم بها يشعر كل الشعور بنواحى القوة والجمال فيها ، ويتطلع إلى إجادتها وتحسينها . أما لغة التخاطب فهى تلك التى يمكن أن يقال إن الناس كانوا

يتكلمونها بالسليقة ، ويؤدون بها التافه من شئونهم ، لا يعمدون إليها عن قصد ، ولا يتخيرون ألفاظها ، بل يكتفون منها بتأدية الأغراض العامة فى الحياة العادية . فإذا جد الجد وتطلب المجال نواحى خاصة من القول ، نواحى جدية لا يعمد إليها فى كل يوم ، لجأ المتكلم من الخاصة إلى تلك اللغة الأدبية ، ورآها أهلا لذلك .

لهذا رويت لنا الآثار الأدبية القديمة فى لغة موحدة ، لا تشتمل على خصائص من تلك التى رويت عن اللهجات العربية القديمة . ولا يعقل أن الرواة رووها موحدة ، وغيروا تلك الصفات الخاصة التى يمكن أن يكون قد اشتمل عليها شعر شاعر من قبيلة عرفت بلهجة من اللهجات ، لأن مثل هذا التغيير ليس ممكنا فى كل الحالات . فإذا أمكن عمله فى النثر فإن الوزن الشعرى يأباه فى بعض الأحيان .

ونحن حين نستعرض شعراء ربيعة تلك القبيلة التى عرفت بالكشكشة لا نكاد نلمح أثرا لتلك الصفة فى شعر شعرائها . ورواية شعر فيه كشكشة بشعر خال منها تأباه الأوزان الشعرية .

لهذا نرجح أن اللغة الأدبية كانت موحدة قبل الإسلام ، وظلت موحدة بعده ، وقد خلت من الصفات الخاصة للهجات ، تلك الصفات التى نفر منها خاصة العرب ، وأصبحت بعد الإسلام موضع السخرية فى كثير من الأحيان . فقد رويت لنا روايات كثيرة عن بعض الأعراب وقد حضروا مجالس الخلفاء ولا سيما أمام معاوية ، حين برئوا من طمطمانية حمير وعجعجة قضاعة ، وعدوا

أمثال تلك الصفات بعدا عن الفصاحة ، بل تـكاد تـكون نوعا من الرطانة أو العجمة .

— ٢ —

كيف كان ينظر إلى اللهجات

لقد اختلفت النظرة إلى اللهجات العربية القديمة باختلاف العصـور ، والعوامل السياسية والاجتماعية فى كل منها :

فقبل الاسلام استمسكت كل قبيلة بصفاتها الـكلامية ، فى حديثها العادى وفى لهجات التخاطب ، ولـكن الخاصة من الناس فى تلك القبائل قد لجأوا إلى تلك اللغة النموذجية التى نشـأت فى مكة ، فى شئونهم الجدية ، يخطبون بها وينظمون الشعر ، وينفرون من صفات اللهجات فى مثل هذا المجال . حتى إذا عادوا إلى بيئاتهم تحدثوا إلى الناس فى الشئون العامة بمثل لهجتهم ، لئلا تنفر منهم النفوس . وإنما مثلهم فى هذا مثل بعض الأعيان من أهل الريف المصرى حين يفدون إلى القاهرة ، ويخالطون المثقفين فيها فلا نـكاد نلحظ فى كلامهم صفات خاصة تنبىء عن بيئتهم الريفية . فإذا عادوا إلى مقرهم الأصلى سمعتهم يخاطبون الناس بلهجاتهم كأن لم يبرحوا تلك البيئات ولا يوما واحدا . وأولئك الخاصة من أعيان الريف يجعلون لـكل مجال ما يناسبه من القول ، فهم بين المثقفين من القاهريين مثلهم ، وهم بين أهليهم وذويهم فى البيئة الريفية مثلهم أيضا .

تلك هي الحال التي كانت شائعة بين الخاصة من رؤساء القبائل ، يرونه عيباً أن يخطبوا في سوق كسوق عكاظ بتلك اللهجة الخاصة بهم ، كما يرونه عيباً أن يتحدثوا إلى قبائلهم بغير تلك اللهجات . هذه حال كانت مألوفة بين القبائل ، متواضعاً عليها ، ولهذا لم ترد لنا روايات جاهلية عن السخرية بصفات كلامية لقبيلة من القبائل أو القدح فيها .

فلما جاء الإسلام ، وأراد أن يتألف قلوب العامة والخاصة معاً ، سمح بأن يقرأ القرآن الكريم ببعض تلك الصفات التي لم يكن في مقدور العامة غيرها . فالقرآن الكريم وإن نزل بلهجة موحدة ، ولغة أدبية موحدة ؛ أبيح في قراءته الخروج عن تلك اللغة الموحدة ، تيسيراً على عامة العرب ، وتأليفاً لقلوبهم . وهذا هو معنى الحديث الشريف « أنزل القرآن على سبعة أحرف » . وسنعرض فيما بعد إلى ما اشتملت عليه القراءات القرآنية من صفات اللهجات العربية القديمة .

ثم اتسعت المملكة العربية حتى شملت دولا كثيرة ، فكان لابد لضمان وحدتها ، والقضاء على عوامل الفرقة فيها ألا تعطي اللهجات العربية من العناية ما قد يزيد من عصبية القبائل ويباعد بينها . فأهمل أمرها ، ولم يرو عنها إلا القليل في ثنايا كتب اللغة والأدب والتاريخ . بل إن ما روى عنها جاءنا مبتوراً ناقصاً في معظم الأحيان . ولسنا نعلم مؤلفاً من علماء العرب ، على وفرتهم واهتمامهم بكل دقائق الدراسة اللغوية ، عنى باللهجات العربية عناية خاصة فأفرد لها كتاباً مستقلا . وكل ما نعلمه عن تلك اللهجات من روايات الأقدمين لايعدو أن يكون مجرد إشارات مبعثرة هنا وهناك ، تضمنتها كتب التاريخ والأدب .

ولما جاء عهد التدين بدأ الرواة يفرقون بين قبيلة وأخرى ، فينسبون الفصاحة لهذه ، وينكرونها على تلك . فقد رفضوا الأخذ عن تلك القبائل المتطرفة التى كانت مساكنها حدود الجزيرة العربية . فلم يأخذوا عن قضاعة لمجاورتها بلاد الرومان ، واحتمال تأثرهم بلغة الروم فى حدود سوريا وفلسطين . كما رفضوا الأخذ عن تغلب والنمر ، لقربهم من أرض الجزيرة وتأثرهم بالفارسية واليونانية . كما أنكروا الفصاحة على بكر لاتصالهم بالفرس والنبط .

وقالوا أيضاً إن اختلاط قبائل اليمن بالحبشة قد أضعف من فصاحتهم ، وإن اتصال لخم وجذام بمصر قد جعل لغتهم موضع الشك ، فلا يحتج بها فى الروايات اللغوية .

وقد آثر الرواة الأخذ عن قريش وقيس وتميم وأسد وهزيل وغيرهم ممن كانت مساكنهم فى وسط الجزيرة . على أنهم فيما بعد بدأوا يختلفون فى التفرقة بين القبائل ، فلم يكد ينقضى القرن الرابع الهجرى حتى ظهر من علماء العرب من لم يفرق بين قبيلة وأخرى ، بل عدهم جميعاً سواء فى جواز الأخذ عنهم ، والاحتجاج بأقوالهم . فقد عقد ابن جنى فى كتابه الخصائص فصلا مستقلا سماه « اختلاف اللغات وكلها حجة » ، أشار فيه إلى بعض الصفات المشهورة عن لهجات القبائل ، وأن بعض تلك الصفات أشهر من البعض الآخر ، وأكثر شيوعا فى اللغة ، ولكنها جميعاً مما يحتج به ، إلى أن قال ما نصه « إلا أن إنسانا لو استعملها لم يكن مخطئاً لكلام العرب ، لكنه يكون مخطئاً لأجود اللغتين ، فأما إن احتاج

إلى ذلك فى شعر أو سجع فإنه مقبول منه غير منعى عليه » .

تلك هى نظرة الأقدمين للهجات العربية القديمة فى العصور المختلفة . ومنها يتضح لنا مبالغة المتأخرين منهم فى الاعتزاز بكل ما ينسب إلى قبائل البدو حتى ولو كان مخالفا لما جاء به القرآن الكريم ، والآثار الأدبية فى الجاهلية وصدر الإسلام . ذلك لأنهم لم يفرقوا بين اللغة الأدبية التى جاء الإسلام فوجدها موحدة ، ذات خصائص متميزة ، وبين لهجات التخاطب التى اشتملت على الصفات الخاصة للقبائل . وفى هذا من الاضطراب ما فيه ، لأن شرط اللغة الاطراد والتوحد فى الخصائص . فمحاولة بناء قواعد اللغة العربية من كل ماروى عن القبائل ، يؤدى حتما إلى التناقض ، ويبعد باللغة عن الانسجام والاتحاد فى الخصائص . فلو أن الرواة وقفوا فى استنباط قواعدهم عند اللغة الأدبية التى جاءتهم موحدة وممثلة فى الآداب الجاهلية والقرآن الكريم ، لجنبوا أنفسهم كثيراً من المهاترات والجدل حول ما يجوز ، وما لا يجوز . ولكنهم حاولوا إقحام تلك الصفات الخاصة للهجات العربية ، فبدت لهذا لنا القواعد اللغوية مضطربة متعددة الوجوه إلى حد أن قال بعض الأقدمين « حِبت لنحوى يخطىء » !!

ولسنا نعلم لغة من لغات العالم قد تعددت فيها الوجوه ، وكثرت فيها الأقوال حول المسألة الواحدة ، كذلك الذى حاول النحاة أن يطلعونا عليه ، ويعرفونا به ؛ لأن شرط فهم الأفراد بعضهم لبعض فى كل بيئة لغوية ، أن تطرد فيها الخصائص وتتحد وأن يصبح الشاذ فيها بنسبة ضئيلة جداً لا تكاد تذكر .

وربما كان المسئول عن هذا الاضطراب ، ذلك الدور الذى لعبته السياسة العباسية ، فى الصراع العلمى بين مدرستى البصرة والكوفة . فقد انتصر العباسيون للكوفيين فى غالب الأحيان ، و بلغ التنافس بين أنصار المدرستين أوجه فى عصور تدوين اللغة ، و كان كل فريق يجرح الآخر و يطعن فيما يرو يه . « بل كان العلماء شغوفين بأن يقفوا على كل جديد لم يعرفوه ، و كان يقضى على العالم فى جهله بكلمة ، أو خطئه فى مسألة ، فدعا ذلك بعضهم لأن يتزيدوا و يختلقوا إذا أحرجوا »[1] .

(١) ضحى الاسلام الجزء الأول .

الفصل الثالث

القراءات القرآنية واللهجات

روى عن أبى بن كعب رضى الله عنه ، قال « دخلت المسجد أصلى ، فدخل رجل فافتتح النحل ، فقرأ ، فخالفنى فى القراءة ، فلما انفتل قلت : من اقرأك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثم جاء رجل فقام يصلى ، فقرأ وافتتح النحل فخالفنى وخالف صاحبى ، فلما انفتل قلت : من أقرأك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فدخل قلبى من الشك والتكذيب أشد مما كان فى الجاهلية ، فأخذت بأيديهما ، فانطلقت بهما إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : استقرىء هذين ، فاستقرأ أحدهما وقال : أحسنت . فدخل قلبى من الشك والتكذيب أشد مما كان فى الجاهلية . ثم استقرأ الآخر وقال : أحسنت . فدخل صدرى من الشك والتكذيب أشد مما كان فى الجاهلية ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدرى بيده فقال : أعيذك بالله يا أبى من الشك ، ثم قال : إن جبريل عليه السلام أتانى فقال : إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلت : اللهم خفف عن أمتى ، ثم عاد فقال : إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفين ، فقلت : اللهم خفف اللهم عن أمتى ، ثم عاد وقال : إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف » .

هذه هى إحدى الروايات التى بينت لنا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجيز قراءات الناس ، ولا ينكرها عليهم ، متى كان موضع الخلاف فيها لهجات ألسنتهم ، وما تعودوه من طريقة النطق .

وقد تواترت الروايات على صحة حديث « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، ولكن علماء العربية قد اختلفوا فى تفسيره اختلافا يكاد يبلغ حد الاضطراب . والحديث على وضوحه ، وانسجامه مع روح الإسلام ، قد أسرف فى تأويله وتخريجه إلى حد أن روى له السيوطى فى كتابه « الاتقان » أربعين وجها !

ولست أدرى سر هذا الاختلاف ، وتعدد الأوجه ، إلا أن نعزوه إلى اجتهاد المتقدمين ، ومحاولتهم التوفيق بينه و بين ماتواضعوا عليه فى شأن القراءات.

ونحن لا نشك الآن فى أن للحديث وجها واحداً ، يتفق والمنطق الإسلامى الذى يتلخص فى أن الدين الإسلامى قد دعا الناس كافة فى مشارق الأرض ومغاربها ، إلى الإيمان به ، واتخاذه عقيدة لهم . فلم يبعث النبى صلى الله عليه وسلم لشعب خاص من الشعوب ، و إنما أرسل إلى الناس كافة . هذا إلى أن الدين يسر لا عسر ، فقد اشتملت أحكامه وتعاليمه على كثير من الرخص حين يشق على الناس أمر من الأمور .

فنحن حين ننظر إلى هذا الحديث فى ضوء الروح الإسلامى نرى أنه ليس إلا إحدى تلك الوسائل التي أريد بها التيسير على الناس ، ومنع المشقة عنهم .

فالمسلم أيا كانت لهجته ، وأيا كانت بيئته ، وأيا كانت تلك الصفات الكلامية التى نشأ عليها وتعودها ولم يقدر إلا عليها ، يستطيع أن يقرأ القرآن بالقدر الذى تعودته عضلات صوته فى نطقه بلهجته أو لغته . ويجب ألا ننكر عليه ، أو أن

تهزأ من قراءته ، فقد حاول و بذل الجهد فله أجر اجتهاده .

وجميع الروايات التى سبقت قول هذا الحديث تؤيد ما نذهب إليه من أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد به إلا أن يمنع الناس من القدح فى قراءة غيرهم ، و إنكارها عليهم .

وقد نادى بمثل هذا الرأى بعض العلماء الأقدمين . فقد روى ابن الجزرى فى الجزء الأول من كتابه النشر فى القراءات العشر ما نصه « كانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، لغاتهم مختلفة ، وألسنتهم شتى ، يعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها ، أو من حرف إلى آخر ، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولو بالتعليم والعلاج لا سيما الشيخ والمرأة ومن لم يقرأ كتابا كما أشار إليه صلى الله عليه وسلم . فلو كلفوا العدول عن لغتهم ، والانتقال عن ألسنتهم ، لكان من التكليف بما لا يستطاع » .

وقال ابن قتيبة فى كتاب المشكل « فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقرئ كل أمة بلغتهم ، وما جرت عليه عاداتهم ، فالهذلى يقرأ « عتىّ حين » ، والأسدى يقرأ « تِعلمون » ، والتميمى يهمز والقرشى لا يهمز ... الخ » .

وليست تلك الحروف السبع التى أجيز قراءة القرآن بها مقصورة على اللهجات العربية ، بل تشمل جميع لهجات المسلمين فى جميع بقاع الأرض . فإذا قرأ الهندى المسلم القرآن أمامنا ، ولاحظنا بعض الخلافات الصوتية فى نطقه وجب ألا ننكر عليه قراءته ، فهى غاية جهده ، ولا يقدر على غيرها .

و يجب ألا تعدو تلك الأحرف النواحي الصوتية ، من اختلاف فى مخرج

الصوت ، وتباين فى صفته ، بين جهر وهمس أو شدة ورخاوة ، أو تباين فى موضع النبر من الكلمة ، أو مقاييس أصوات اللين إلى غير ذلك من الموضوعات التى يعرض لها علم الأصوات اللغوية ؛ لأن لكل شعب من الشعوب صفات صوتية تميزه عن غيره ، وتكون جزءاً هاما مما يسميه المحدثون بالعادات الكلامية (١) .

أما الناحية العددية ، فى الحديث فليس المراد قصر الأحرف على العدد سبعة ، بل المراد مجرد التعدد ، وهو ما ينسجم مع العقلية السامية . لأن العدد سبعة يعبر عن الكثرة والتعدد فى الأساليب السامية .. وقد أشار إلى هذا ابن الجزرى فى الجزء الأول من كتابه النشر صفحة ٢٥ ، إذ يقول مانصه « وقيل ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بحيث لايزيد ولاينقص ، بل المراد السعة والتيسير وأنه لا حرج عليهم فى قراءته بما هو من لغات العرب ، من حيث أن الله تعالى أذن لهم فى ذلك . والعرب يطلقون لفظ السبع والسبعين والسبعمائة ، ولا يريدون حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص ؛ بل يريدون الكثرة والمبالغة من غير حصر ، قال تعالى . كمثل حبة أنبتت سبع سنابل . وقال : وإن تستغفر لهم سبعين مرة ... الخ » .

أما ما اشتملت عليه القراءات القرآنية ، من صفات صوتية فيمكن إرجاعها إلى بعض اللهجات العربية . وتنتمى هذه الصفات الصوتية إلى أشهر القبائل وأوسعها انتشاراً . لذلك وجدت كل العناية ، بين القراء ، وروعيت فى القراءات القرآنية ؛ لأنها الصفات التى شاعت فى معظم قبائل العرب ، والتى

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية ، الفصل العاشر صـ ١٨٢ .

تأصلت فى لهجاتهم ، فجازت القراءة بها تيسيراً على تلك القبائل المشهورة .

ولم تشتمل القراءات القرآنية ، على كل الصفات الصوتية التى رويت لنا عن اللهجات العربية ، لأن بعض تلك الصفات لم تكن من الشيوع بين القبائل ما استحقت معه ، فى رأى القراء ، أن يقرأ بها ، أو بعبارة أخرى ما استحقت معه أن تذكر بين القراءات القرآنية المشهورة .

وإذا كان علماء القراءات أنفسهم يعترفون بأن ما روى لنا منها ليس كل القراءات التى قرئ بها فى العصور الإسلامية الأولى ، وإنما هي طرف منها فقط ، فليس من التجنى أن نحكم بأن بعض تلك القراءات التى تنوسيت وأهمل أمرها كانت تشتمل على صفات صوتية للهجات غير التى رويت لنا فى كتب القراءات .

فانظر مثلا إلى ما يقرره ابن الجزرى فى كتابه النشر الجزء الأول صفحة ٣٣ « فإن القراءات المشهورة اليوم عن السبعة والعشرة والثلاثة عشر بالنسبة إلى ما كان مشهوراً فى الأعصار الأول ، قل من كثر ، ونزر من بحر ، فإن من له اطلاع على ذلك يعرف علمه العلم اليقين » . فما روته القراءات القرآنية من صفات اللهجات العربية القديمة ليس إلا المشهور منها ، الكثير الشيوع الذى تأصل فى النطق .

وتلك الصفات الصوتية التى اشتملت عليها القراءات كما نعرفها الآن ، والتى يمكن أن تعزى إلى اختلاف اللهجات العربية هى :

— ١ —

الفتح والإمالة

أجمع علماء العربية على نسبة الفتح لأهل الحجاز ، وعلى أن قبائل نجد قد عرف عنهم الإمالة فى كلامهم . ويظهر أن القبائل العربية قبل الإسلام وبعده قد انقسمت إلى شعبتين : الشعبة الاولى تؤثر الفتح ، أو بعبارة أخرى لا تستقيم ألسنتها بغيره ، والشعبة الأخرى قد شاعت فيها الإمالة .

ويمكن بصفة عامة أن ننسب الفتح إلى جميع القبائل التى كانت مساكنها غربى الجزيرة بما فى ذلك قبائل الحجاز أمثال قريش والأنصار وثقيف وهوازن وسعد بن بكر وكنانة ، وأن ننسب الإمالة إلى جميع القبائل الذين عاشوا فى وسط الجزيرة وشرقيها ، وأشهرها تميم وأسد وطيىء وبكر بن وائل وعبد القيس وتغلب .

والقبائل التى كثر انتشارها فى أمصار العراق بعد الفتح الاسلامى ، تكاد تنحصر فى الشعبة الثانية . وقد اتخذ علماء الكوفة والبصرة مُثلهم من القبائل التى انتشرت فى تلك الأصقاع ، أو تعودت النزوح إليها . وقد حدثنا تاريخ الهجرات القبلية ، رغم غموضه ، بأن أشهر القبائل التى أثرت فى بيئة الكوفة والبصرة ، هى قبائل وسط الجزيرة وشرقيها . فعن معظمهم أخذ علماء الكوفة والبصرة ، وبهم اقتدوا .

فلا غرابة إذن أن نرى الإمالة شائعة فى القراءات القرآنية ، التى انتظمت البيئة العراقية فى القرن الثانى الهجرى .

وأشهر من روى عنهم الإمالة من القراء العشرة هم :

حمزة الذى توفى سنة ١٥٦ هـ . وكان إمام القراء فى الكوفة .

الكسائى الذى توفى سنة ١٨٩ هـ . وورث إمامة القراءات بالكوفة بعد حمزة .

خلف الذى توفى سنة ٢٢٩ هـ . بالكوفة أيضاً .

فأئمة القراءة الذين اشتهر عنهم الإمالة كوفيون ، أى تأثروا بتلك القبائل التى أقامت بالعراق ، أو تعودت النزوح إليه وهى قبائل قريبة مساكنها من العراق ، وعرفت لهجاتها بالإمالة .

وقد كان من المتوقع أن يشمل هذا التأثر بيئة البصرة أيضاً ، فنلحظ الإمالة بين قرائها أمثال :

أبى عمرو بن العلاء الذى توفى سنة ١٥٤ هـ .

ويعقوب الذى ورثه فى إمامة القراءات بالبصرة والذى توفى سنة ٢٠٥ هـ .

ولكن الذى قد يدعو إلى الدهشة أن قراءة أبى عمرو وتلميذه يعقوب لم تنتصر للامالة إلا فى مواضع خاصة نصت عليها كتب القراءات .

ولعل الصراع العلمى الذى كان بين الكوفة والبصرة هو الذى دعا إلى هذه المغايرة ، وإلى أن تتخذ البصرة طريق الفتح فى معظم المواضع ، حتى لا تشبه الكوفة فى إمالتها .

كذلك قد يبدو من الغريب أن نرى بين علماء الكوفة أمثال عاصم الذى

توفى سنة ١٢٧ هـ . والذى أخذ عنه حفص تلك القراءة المشهورة الآن بالبلاد العربية ، والتى تكاد تخلو من الإمالة !

ولكنا حين نذكر أن عاصما كان أسبق علماء الكوفة فى فن القراءات ، وأنه عاش قبل أن يشتد التنافس بين مدرستى البصرة والكوفة ، نستطيع بسهولة أن نتصور أن عاصما فى قراءته قد تأثر ببيئة غير بيئته ، كالبيئة الحجازية مثلا . وبعض القراء فى قليل من الأحيان يؤثرون القراءة التى تغاير اللهجة الشائعة بين ظهرانيهم ، فلعل عاصما كان أحد هؤلاء .

نخلص من كل هذا إلى أن الأمالة كانت الصفة الشائعة بين قبائل وسط الجزيرة وشرقيها ، وإلى أنها شاعت بعد الإسلام فى اللهجات العربية ببلاد العراق . ومما قد يؤيد ما نذهب إليه أن الكسائى سئل مرة « إنك تميل ما قبل هاء التأنيث ، فقال هذا طباع العربية » . وقد عقب على قول الكسائى أبو عمرو الدانى فى كتابه التيسير فقال « إن الكسائى أراد بذلك أن الإمالة لغة أهل الكوفة ، وهى باقية فيهم إلى الآن ، وهم بقية أبناء العرب » . أى أن الإمالة ظلت شائعة بين أهل الكوفة حتى عهد أبى عمرو الدانى فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، ولعلها باقية فيهم حتى أيامنا هذه .

بقى أن نشرح معنى الفتح والإمالة كما يراها المحدثون من علماء الأصوات اللغويه .

الفتح والإمالة صوتان من أصوات اللين ، سواء كانا قصيرين أو طويلين . وأصوات اللين القصيرة فى الاصطلاح الحديث هى ما كان يسميه القدماء بالحركات ، أما أصوات اللين الطويلة فهى ما كانوا يسمونه بألف المد وياء المد

وواو المد . ولا فرق بين القصيرة والطويلة إلا فى الكمية . فمخرج الفتحة ووضع اللسان معها هو نفسه مخرج ألف المد ووضع اللسان معها ، والفرق بينهما فرق فى الكمية . وكذلك الكسرة وياء المدّ متماثلتان فى المخرج ووضع اللسان ، كما أن الضمة وواو المد متماثلتان فيهما أيضاً .

فلا فرق إذن بين أن تمال الفتحة أو تمال ألف المد ، لأن العملية العضلية فى الحالتين واحدة .

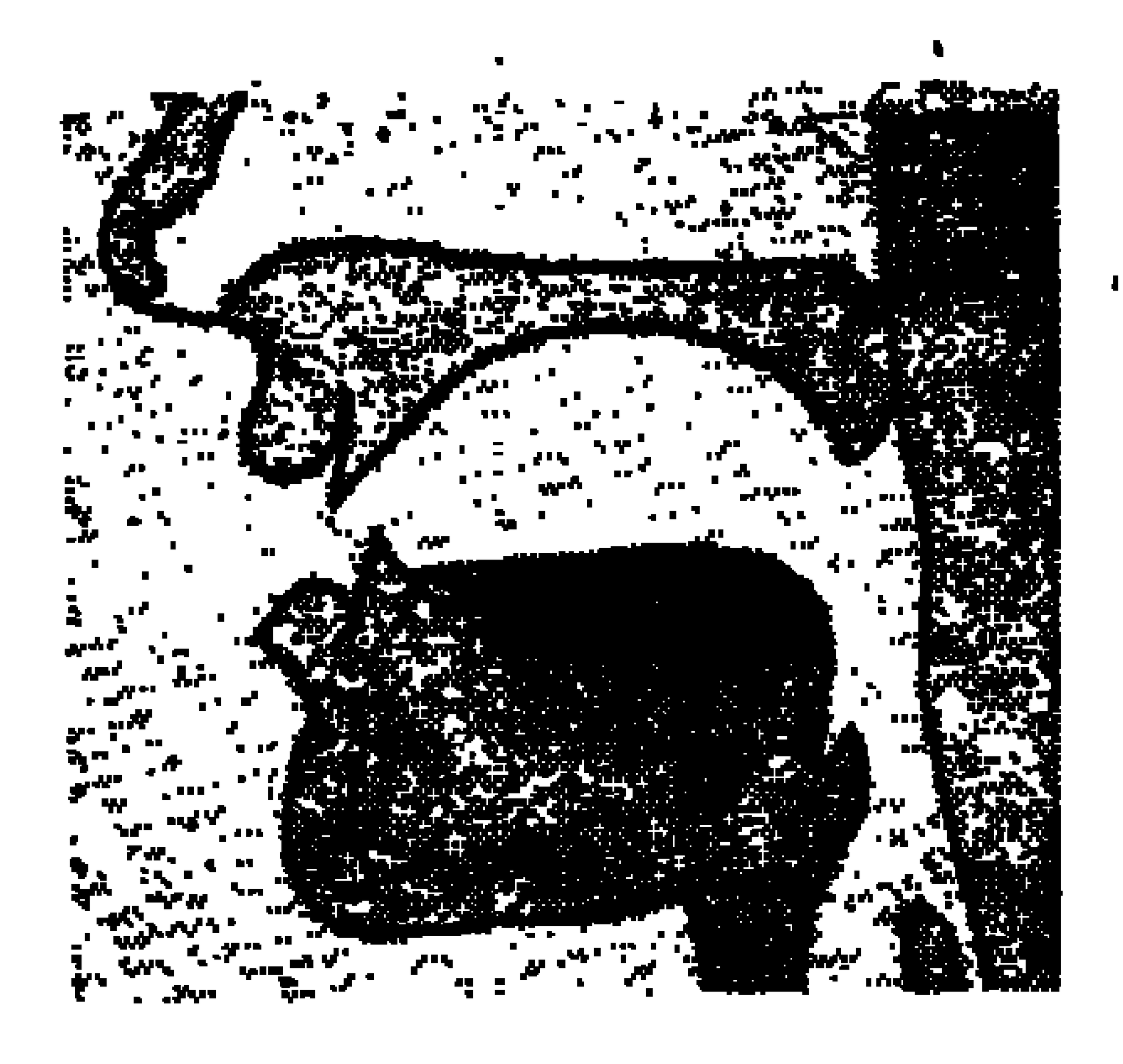
وقد وضع المحدثون مقاييس[1] مشهورة لأصوات اللين يعرض لها بالتفصيل علم الأصوات اللغوية . وما سماه القدماء بالفتح هو أحد تلك المقاييس ، وما سموه بالإمالة مقياس آخر منها .

واللسان مع الفتح يكاد يكون مستويا فى قاع الفم ، فإذا أخذ فى الصعود نحو الحنك الأعلى بدأ حينئذ ذلك الوضع الذى يسمى بالإمالة . وأقصى ما يصل إليه اللسان فى صعوده نحو الحنك الأعلى ، هو ذلك القياس الذى يسمى عادة بالكسرة ، طويلة كانت أو قصيرة . فهناك إذن مراحل بين الفتح والكسر ، لا مرحلة واحدة . من أجل ذلك كان القدماء يقسمون الإمالة إلى نوعين : إمالة خفيفة و إمالة شديدة .

انظر الشكلين الآتيين اللذين يوضحان وضع اللسان فى حالتى الفتح والكسر .

---

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية ص ٣٠ .


(شـكل ١) الفتح


(شـكل ٢) الـكسر

فنحن نرى فى الشكل الأول أقصى ما يصل إليه اللسان فى هبوطه نحو قاع الفم لتتكون تلك الفتحة المفخمة المعروفة لنا .

وفى الشكل الثانى نرى أقصى ما يصل إليه اللسان فى صعوده نحو الحنك الأعلى لتتكون تلك الـكسرة المرققة . و بين هذين الوضعين للسان تتكون المراحل الثلاثة الآتية :

فتحة مرققة ، إمالة خفيفة ، إمالة شديدة .

و بهذا نرى أن الفرق بين صاحب الفتح وصاحب الإمالة ليس إلا اختلافا فى وضع اللسان مع كل منهما ، حين النطق بهذين الصوتين . واللسان فى حالة الإمالة أقرب إلى الحنك الأعلى منه فى حالة الفتح .

ولقد اضطربت أقوال الأقدمين فى شرح أسباب الإمالة حين حاولوا أن يضعوا لها قواعد وقوانين ، كما اختلفوا فى الحكم على أيهما الأصل : الفتح أم الإمالة ؟

ونحن حين نستعرض أمثلة الإمالة وأحوالها نراها تنقسم إلى نوعين مختلفين :

١ — صوت لين خالص تكون من صوت لين مركب يسميه المحدثون Diphthong

٢ — تغير فى مقياس صوت من أصوات اللين .

ونلحظ الحالة الأولى حين يكون صوت اللين طويلا ، ومنقلباً عن أصل من أصول الكلمة ، يائيا كان أو واويا . ففى مثل الفعلين « باع ، قال » يظهر أنه قد أتى عليهما حين من الدهر كان ينطق بهما .

بَيْعَ ، قَوْلَ

ثم تطور الصوت الأول « ai » إلى :e والصوت الثانى « au » إلى :o أى أن فتحة فاء الكلمة فى الفعل الأول قد أميلت إلى الكسرة ، وأنها فى الفعل الثانى قد أميلت إلى الضمة .

فهناك إمالة فى الحالين ، فكما يمال الفتح إلى الكسر قد يمال أيضاً إلى الضم . ولكن القراء فى إمالتهم لم يعنوا إلا بالإمالة الأولى ، وهى الفتح إلى الكسر لأنها أكثر شيوعا وانتشاراً وظهوراً بين القبائل العربية المشهورة . أما إمالة الفتح إلى الضم فقد ظلت مهملة يشار إليها أحيانا فى بعض المطولات من كتب اللغة على أنها لهجة لبعض القبائل ، دون نسبتها إلى قبيلة خاصة . فقد أشار إليها ابن جنى فى كتابه « سر صناعة الإعراب » ، وعلل بها كتابة الصلاة والزكاة وأمثالها فى الخط العثمانى بالواو .

ونحن فى مثل هذه العجالة لا نستطيع أن نرجح نسبة هذه اللهجة إلى قبيلة من القبائل العربية ، غير أننا نلحظ وجودها فى بعض اللهجات الحديثة .

وهناك نوعان آخران من الإمالة رواهما ابن جنى فى كتابه الآنف الذكر وهما :

١ — الكسرة المشوبة بالضمة ، وهى تلك التى في صيغ البناء للمجهول ، والتى عبّر عنها القدماء من النحاة بالإشمام فى مثل قيل ، بيع . وقد قرأ بهذه اللهجة الكسائى وهشام فى [قيل . غيض . جىء . حيل . سيق . سىء] .

٢ — الضمة المشوبة بالكسرة ، كأن يمال بمثل « بوع » نحو الكسرة . وهذه اللهجة أقل اللهجات شهرة وشيوعا ، وإن رويت بين لهجات العرب .

فالإمالة كما ترى أنواع أربعة ، أشهرها إمالة الفتح إلى الكسر . وهذا النوع هو المراد بالإمالة حين تطلق فى كتب القراءات واللغة . وعلى هذا إذا قيل لنا إن من أسباب إمالة ألف المدّ كون أصلها ياء ، كما فى « باع » ، وجب أن نفهم من هذا أن الأصل اليائى قد تطور أولا إلى الإمالة ، ثم تطورت الإمالة إلى الفتح ، أى أن المراحل التى مرّ فيها مثل هذا الفعل « باع » هى :

(بَيْعَ) ثم (إمالة) ثم (فتح)

فالصوت المركب ai قد تطور أولا إلى :e ثم إلى :a .

تلك هى المراحل التى تبررها القوانين الصوتية ، والتى لها نظائر فى اللغات الأخرى . ولذلك نستطيع أن نرجح أن بعض الكلمات العربية التى اشتملت على ياء أصلية قد تطورت أولا إلى الإمالة ثم إلى الفتح . فالأصل إذن فى مثل هذه الكلمات هو الإمالة ، وقد تفرع الفتح عنها .

ونستنبط من هذا أن قبائل الحجاز التى عرف عنها الفتح قد قطعت مرحلة أخرى فى تطور لهجاتها ، إذ انتقلت من الإمالة إلى الفتح ، كما نستنبط أن

انعزال بعض القبائل فى وسط الجزيرة وشرقيها قد سبب احتفاظها بمرحلة الإمالة التى هى أقدم حين تكون الياء أصلية فى الكلمات .

وانتقال الإمالة إلى الفتح ليس له ما يبرره سوى الاقتصاد فى الجهد العضلى ، والميل إلى السهولة التى يلجأ إليها الإنسان فى معظم ظواهره الاجتماعية .

أما حين تعرض الإمالة لغير أصل من أصول الكلمة كإمالة الفتحة ، أو إمالة ألف المد غير المنقلبة عن أصل ، فليس هذا إلا نوعا من الانسجام بين أصوات اللين . لذلك جعل القدماء من أسباب الإمالة وجود كسرة ، سواء كانت سابقة أو لاحقة . ولا شك أن الانتقال من الكسر إلى الفتح أو بالعكس ، يتطلب مجهودا عضليا أكبر مما لو انسجمت أصوات اللين بعضها مع بعض ، بأن تصبح متشابهة . لأن حركة الإمالة أقرب إلى الكسرة منها إلى الفتحة . [انظر الشكلين صفحة ٤٥] .

ومتى سلمنا بنظرية السهولة والاقتصاد فى الجهد العضلى ، استطعنا أن نتصور أن الكلمة التى تشتمل على أصوات لين منسجمة ، أحدث من نظيرتها التى خلت أصوات لينها من الانسجام . ونستطيع لهذا أن نقول إن كلمة « كتاب » كما ينطق بها بغير إمالة أقدم فى نسجها منها مع الإمالة .

وقد خلط القدماء بين عنصرين رئيسيين من الكلمات : تلك التى اشتملت على أصل يائى ، و بين التى رويت بالإمالة دون أن يكون مبعث الإمالة فيها تضمنها أصلا يائيا .

فإمالة الفتح إلى الكسر يجب فى الحقيقة أن تعزى بصفة عامة إلى أحد عاملين :

١ — الأصل اليائى .

٢ — الانسجام بين أصوات اللين .

وليس يقتصر أثر العامل الثانى على الإمالة من الفتح إلى الكسر ، بل يمكن أن يعزى إليه أيضا الانتقال من الكسر إلى الفتح ، كما فى تلك الأفعال الثلاثية التى رويت لنا مرة مثل « فرح » وأخرى مثل « فتح » ، كالفعل [حسِب ، حسَب] . ففى هذه الحالة يمكن أن يقال إن « حسِب » أقدم وأسبق وقد تطورت إلى « حسَب » ، ليتحقق الانسجام بين أصوات اللين .

ويلعب الانسجام بين أصوات اللين دورا هاما فى معظم لغات البشر . وهو من التطورات الحديثة ، التى تميل إليها اللغات بصفة عامة . وقد اعترف به القدماء من علماء العربية ، وسموه فى باب الإمالة بالتناسب ، ثم سموه فى بعض أبواب الإعراب « بحركات الاتباع » وتأولوا عليه قولهم «جحر ضب خربٍ » . بل إن حركة الاتباع قد اعترف بها بعض القراء ، فرووها فى بعض القراءات القرآنية ، فقد قرىء [بسمِ اللهِ الرحمن الرحيمِ الحمدِ للهِ ربِّ العالمين] .

أما قواعد النحاة فى باب الإمالة فيمكن إرجاعها جميعا إلى العاملين الرئيسيين اللذين أشرنا إليهما هنا ، غير أنه من الصعب مع هذا أن نبرر من الناحية الصوتية ، ما زعمه النحاة من جواز الإمالة فيما أصله واو مثل [خاف ، مغزى] ، لأن الإمالة فى مثل هذه الحالة كان حقها أن تكون من الفتح إلى الضم ، لا من الفتح إلى الكسر . على أن النحاة قد اختلفوا فى الحكم على إمالة أمثال [خاف ، مغزى] فأنكرها بعضهم أمثال أبى العباس ، فقد روى

عنه أن قال إن إمالة ما كان من ذوات الواو على ثلاثة أحرف نحو [دعا ، غزا] قبيحة إلا إذا كان هناك ما يبررها كـكسرة تسبق ألف المد كما فى إمالة «ربا» التى قرأ بها الـكسائى وحمزة .

هذا ولا نستطيع أن نتصور كيف جعل النحاة الإمالة ، من الأمور الجائزة ! ! فقد قرروا أن كل ممال يجوز فتحه ! ولو صح هذا القول لأمكن أن نتصور أن من القبائل من كانوا يميلون ويفتحون كما تشاء لهم أهواؤهم ، وذلك أمر لا يقبله اللغوى الحديث ؛ إذ ليس الأمر أمر مواضعة مقصودة متعمدة ، وإنما هو عادة لـكل قبيلة . فتلك التى تميل لا تستطيع غير الإمالة ، وتلك التى تفتح لا تطاوعها ألسنتها بغير الفتح . فالمسألة لا تعدو أن تكون عادة كـكل العادات اللغوية ، يتوارثها الخلف عن السلف دون شعور بها . فـكان واجب النحاة أن يقولوا إن الامالة لا مفرّ منها عند تلك القبيلة التى تميل فى كلامها ، والفتح واجب عند من لا يستطيعون غيره كمعظم الحجازيين . أما إذا كان النحاة قد أرادوا بجواز الإمالة أنه يجوز لنـا الآن حين نقرأ القرآن الإمالة أو الفتح ، فهذا أمر آخر لا نعرض له هنا بشىء .

ولا تزال الإمالة شائعة فى كثير من اللهجات العربية الحديثة ، ولن تتم معرفتنا بقواعد الامالة وأصولهـا فى العصور الاسلامية الأولى إلا بالاستعانة بقواعدها وأصولها فى اللهجات الحديثة حين تدرس دراسة علمية كافية ، وهو ما نرجو أن تتكفل به بحوث المستقبل .

— ٢ —

الادغام

نؤثر هنا استعمال هذا الاصطلاح القديم ، ونعنى به ما يشير إليه المحدثون من تأثر الأصوات بعضها ببعض حين تتجاور . ويسمى المحدثون هذه الظاهرة اللغوية Assimilation . ولقد أطلقتُ عليها فى كتاب الأصوات اللغوية كلمة « المماثلة » ، لأن شرط تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض أن تكون متشابهة فى المخرج أو الصفة . فإذا اجتمع صوتان متماثلان كل المماثلة أو بعضها ترتب على هذا أن يؤثر أحد الصوتين فى الآخر تأثيراً تختلف نسبته تبعاً للظروف اللغوية الخاصة بلغة من اللغات .

ويقسم المحدثون تأثر الأصوات إلى نوعين :

١ — رجعى Regressive وفيه يتأثر الصوت الأول بالثانى .

٢ — تقدمى Progressive وفيه يتأثر الصوت الثانى بالأول .

وتختلف اللهجات فى الخضوع لنوع من هذين النوعين . فمن اللهجات ما يؤثر النوع الأول كلهجات اللغة الفرنسية ، ومنها ما يلتزم النوع الثانى كلهجات اللغة الانجليزية .

وقد اشتملت اللغة العربية على هذين النوعين من التأثر ، وإن كان النوع الأول هو الأكثر شيوعاً فيها .

ولم يعرض القراء فى كتبهم إلا للنوع الأول ، أى التأثر الرجعى ، وهو

الذى فيه يتأثر الصوت الأول بالثانى تأثراً كاملا يترتب عليه أن يفنى الصوت الأول فى الثانى بحيث ينطق بالصوتين صوتا واحداً كالثانى .

وقد سموا هذا التأثر فى كتبهم بالإدغام ، ثم قسموا الإدغام إلى كبير ، وهو الذى فيه يفصل بين الصوتين الساكنين صوت لين قصير (أى حركة) . وقد نسب هذا الإدغام إلى أبى عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة . وهذا النوع من الإدغام يتطلب عمليات صوتية معقدة قبل أن يتحقق ، فضلا عن أنه لم ينسب إلى قبيلة خاصة عرفت به وآثرته فى نطقها . لهذا نؤثر تركه لفن القراءات لأننا لا نعرف لهجة من اللهجات العربية قد اشتهرت بهذا النوع من التأثر .

أما النوع الثانى للادغام عند القراء فهو الادغام الصغير ، وفيه يتجاور الصوتان الساكنان ، دون فاصل من أصوات اللين . وهو الذى شاع فى معظم اللغات ، لأن شرط تأثر صوت بآخر هو التقاؤهما التقاء مباشراً .

والذى عرف فى القراءات هو تأثر الصوت الأول بالثانى تأثراً تاماً بحيث ينطق بالصوتين صوتا واحداً كالثانى ، وهو ما يعبر عنه عادة بالإدغام .

وقد روت كتب القراءات أمثلة من القرآن الكريم لهذا الإدغام يمكن أن تلخص فيما يلى[1] :

١ — تدغم الباء فى الميم والفاء .

٢ — تدغم التاء فى الثاء . الجيم . الظاء . السين . الصاد . الزاى .

٣ — تدغم الثاء فى الذال . التاء . السين . الشين . الضاد .

---

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية ص ١٢٦ .

٤ — تدغم الدال فى الذال . الظاء . الضاد . الجيم . الشين . السين . الزاى . الصاد . الثاء .

٥ — تدغم الذال فى الثاء . الدال . الجيم . السين . الزاى . الصاد .

٦ — تدغم الراء فى اللام فقط .

٧ — تدغم الفاء فى الباء فقط .

٨ — تدغم اللام فى الراء . التاء . الثاء . الزاى . السين . الضاد . الطاء . الظاء . النون . الذال .

تلك هى الحالات التى اختلف فيها القراء ، فمنهم من أدغم فى كل الحالات السابقة ، ومنهم من أظهر فيها جميعاً ، وقليل من القراء من آثروا الادغام فى بعضها والاظهار فى البعض الآخر .

أما أحكام النون والميم فليست محلا الخلاف بين جمهور القراء ، لهذا نعدها بصفة عامة من الظواهر التى شاعت فى كل اللهجات العربية القديمة ، ولم تختص بها لهجة دون أخرى .

وإذا استعرضنا آراء القراء فى إدغام الأمثـــلة القرآنية أو إظهاها وجدناهم طائفتين :

١ — منهم من يؤثرون الادغام وهم أبو عمرو . والكسائى . وحمزة . وابن عامر . وخلف ، وإن اختلفت النسبة بينهم .

٢ — أما الذين يؤثرون الإظهار فهم ابن كثير . ونافع . وأبو جعفر . وعاصم ويعقوب ، بنسب مختلفة أيضاً .

فممن أخذ هؤلاء وهؤلاء؟ وبأى القبائل تأثروا فى ميلهم للادغام أو الإظهار؟

الحق أن الإجابة عن مثل هذا التساؤل ليس بالأمر الهين اليسير ، لأن أصحاب الإدغام ليسوا جميعاً من بيئة واحدة ، فنهم الكوفى كالكسائى وحمزة وخلف ، ومنهم البصرى كأبى عمرو ، ومنهم الشامى كابن عامر . كذلك أصحاب الإظهار ليسوا من بيئة واحدة ، فنهم الكوفى كعاصم ، والبصرى كيعقوب !

غير أنه من الممكن أن نعزو الادغام بصفة عامة إلى البيئة العراقية ، والاظهار بصفة عامة إلى البيئة الحجازية .

وقد ظهر لنا حين التحدث عن الإمالة أن «عاصما» قد خالف بيئته فى الميل الى الفتح فلا غرابة أن يخالف بيئته هنا أيضاً .

أما ميل ابن عامر لأصحاب الإدغام ، وميل يعقوب لأصحاب الإظهار فمن الصعب تعليله .

نستطيع بعد هذا أن نستنبط أن القبائل التى أثرت فى البيئة العراقية كانت تميل لهجاتها بوجه عام إلى الإدغام ، وأن قبائل الحجاز كانت تميل إلى الاظهار.

وقد عرفنا من قبل أن البيئة العراقية قد تأثرت بقبائل وسط الجزيرة وشرقيها . وعلى هذا فيمكن الحكم على أن القبائل التى عرفت بالادغام هى :

تميم . طيء . أسد . بكر بن وائل . تغلب . عبد القيس .

وأن القبائل التى آثرت الاظهار هى :

قريش . ثقيف . كنانة . الأنصار . هذيل .

فالقبائل العربية إذن قد انقسمت إلى طائفتين : الأولى تؤثر الادغام ، والأخرى تؤثر الاظهار .

وقد يلقى ضوءاً على هذا التقسيم ما أجمعت عليه الروايات اللغوية من أن « تميما» التى اتخذت دائمـا مثلا لقبائل وسط الجزيرة ، كانت تؤثر إدغام

المثلين فى مثل « لم يحلّ » ، فى حين أن الحجازيين كانوا يقولون « لم يحلل » .

وقد جاء القرآن الكريم غالباً بلهجة الحجازيين نحو [إن تمسسكم حسنة] ونحو [من يحلل عليه غضبى] ونحو [واغضض من صوتك] ونحو [ولا تمنن تستكثر] ، وقد ورد فى التنزيل على لهجة تميم [ومن يرتدّ] ونحو [ومن يشاق الله][1] .

كذلك مما قد يلقى ضوءاً على هذا التقسيم ما روته كتب القراءات من أن حمزة والكسائى وخلفا ، كانوا يقرءون [أصدق ، تصديق ، يصدفون ، فاصدع ، قصد ، يصدر] وما أشبه ذلك مما سكنت فيه الصاد وأتى بعدها دال ، كانوا يقرأون هذه الأمثلة بإشمام الصاد صوت الزاى . ومعنى إشمام الصاد صوت الزاى أن ينطق بها ظاء كتلك التى نسمعها من أفواه العوام فى مصر أى أن تكون ظاء غير لثوية .

والسر فى مثل هذا النطق هو مجاورة الصاد التى هى صوت مهموس للدال التى هى صوت مجهور ، فتأثر الصوت الأول بالثانى ، وأصبح مجهوراً مثله ، وحين نجهر بالصاد تصبح تلك الظاء المعروفة بين العوام فى مصر ، بل هى شائعة بين معظم الخاصة الآن فى بلادنا إذ ينطقون بالظاء غير لثوية .

فنحن نلحظ فى هذه الأمثلة ميل بعض القراء إلى تأثر الصوت الأول بالثانى وإن لم يبلغ التأثر حد الادغام .

وإذا علمنا أن حمزة والكسائى وخلفا ، ممن ينتمون إلى البيئة العراقية ، استطعنا أن ندرك بسهولة أن تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض ، قد شاع فى

---

(١) (ومن يرتد) فى سورة المائدة ، (ومن يشاق) فى سورة الحشر .

هذه البيئة أكثر من غيرها ، لأن القراء من البيئة الحجازية يقرأون هذه الأمثلة بالصاد الخالصة . بل لقد جاء في بعض الروايات أن ظاهرة إشمام الصاد الزاى كانت شائعة فى قبيلة طىء ، وهو ما يؤيد ما نذهب إليه .

نستنتج إذن أن الحجازيين بوجه عام كانوا يلتزمون الإظهار ، ويحترزون من تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض ، وهذا لا يتأتى إلا بمراعاة الدقة فى النطق والتأنى والتؤدة فى الأداء ، بحيث يظهرون كل صوت ، ويعطونه حقه من جهر وهمس أو شدة ورخاوة .

وليس ينقض هذا الحكم ما عرف عن الحجازيين من عدم الهمز ، لأن للهمزة حكما خاصا يخالف كل أصوات اللغة ، مما سنعرض له فيما بعد .

ونشتمل اللهجات العربية الحديثة على طائفتين :

أولئك الذين يؤثرون الادغام ، والذين يؤثرون الاظهار . فهل الأولون من نسل تلك القبائل التى كانت تؤثر الادغام فى العصور الاسلامية الأولى ، أوعلى الأقل ممن تأثروا بهم ؟

— ٣ —

الهمز

تروى كتب الأدب أن أحد الرواة سأل رجلا من قريش قائلا « أتهمز الفأرة ؟ » ، فلم يفطن المسئول لما أراد السائل وأجاب ساخراً « إنما يهمزها القأر» !

وقد أراد اللغوى أن يعرف ما إذا كان القرشيون يلتزمون تحقيق الهمزة فى كلامهم.

وتكاد تجمع الروايات على أن التزام الهمز وتحقيقه من خصائص قبيلة تميم ، فى حين أن القرشيين يتخلصون منها بحذفها أو تسهيلها أو قلبها إلى حرف مد . على أنه قد روى أيضا أن بعضاً من تميم يقلبون الهمزة الساكنة إلى صوت لين من جنس حركة ما قبلها فيقولون فى :

رأس . بئر . لؤم

على الترتيب :

راس . بير . لوم

ويضيق المقام هنا عن تفصيل أحكام الهمزة كما روتها كتب القراءات ، فقد فصلت لها أبواب مستفيضة حين تكون منفردة ، وحين تجتمع همزتان . ولقد تعرضت الروايات القرآنية لكل مثل منها فى القرآن الكريم ونسبت حكم الهمزة فيه من تحقيق أو غيره إلى بعض القراء .

ولا يكاد المرء يصل إلى حكم خاص يمكن نسبته إلى بيئة معينة ، نظراً لاختلاف القراء فى أحكام الهمزة اختلافا يطول شرحه . غير أننا نلحظ بوجه عام أن كتب القراءات تكاد تجمع على أن أبا جعفر ونافعاً من رواية ورش ، قد تخلصا من تحقيق الهمزة . ولا غرابة فى ذلك فهما أشهر قراء المدينة ، ومن البيئة الحجازية التى اشتهر عنها عدم الهمز .

ولو أن ابن كثير اشترك معهما فى تلك الصفة لاستطعنا بسهولة أن نحكم على

أن القراء قد التزموا ما عرف عن بيئتهم من الهمز أو عدمه . ولكن كما قررنا آنفاً قد خالف بعض القراء أحيانا فى قراءاتهم صفات اللهجات التى شاعت بين ظهرانيهم . ولئن خالف ابن كثير فى تسهيل الهمز ومال إلى تحقيقه وهو مكى ، لقد خالف عاصم فى الإمالة والادغام رغم أنه كوفى .

نستطيع إذن أن نرجح تلك الروايات التى نسبت تحقيق الهمزة لتميم وغيرهم من قبائل وسط الجزيرة وشرقيها ، وأن ننسب التخلص من الهمزة لمعظم البيئة الحجازية .

بقى أمر لا بد من علاجه هنا ، وهو كيف تأتى أن البيئة الحجازية التى عرفت بالتأنى فى الأداء ، ولم يشتهر عنها إدغام أو إمالة ، أن تعمل على التخلص من الهمزة فى نطقها ؟ إذ التخلص من الهمزة نوع من الميل إلى السهولة والبعد عن التزام التحقيق فى النطق بالأصوات !

الحق أن التخلص من الهمزة لم يكن شائعا فى كل القبائل الحجازية ، بل منها من كانوا يؤثرون تحقيقها . ويدل على هذا قراءة ابن كثير الذى التزم تحقيق الهمزة . هذا إلى أن للهمزة حكما خاصا يخالف جميع الأصوات الأخرى ، لأنها صوت ليس بالمجهور ولا المهموس ، وهى أكثر الأصوات الساكنة شدة ، وعملية النطق بها وهى محققة من أشق العمليات الصوتية ، لأن مخرجها فتحة المزمار التى تنطبق عند النطق بها ثم تنفتح فجأة ، فنسمع ذلك الصوت الانفجارى التى نسميه بالهمزة المحققة .

لهذا مالت كل اللهجات السامية إلى التخلص منها فى النطق . فليس غريباً

أن يتخلص منها أيضاً معظم الحجازيين ، وإنما الغريب أن يحققها قراء البيئة العراقية الذين عرف عنهم الميل إلى التسهيل من إدغام وإمالة ا على أن اللهجات لا تلتزم دائما حالة واحدة فى كل صفاتها ، بل أحيانا تخرج عن تلك الظاهرة التى اختصت بهـا ، لظروف لغوية خاصة ، وحينئذ يكون واجب الباحث المدقق الكشف عن تلك الظروف الخاصة . وإذا نظرنا إلى اللهجات على أنها من المظاهر الاجتماعية ، وأنها تخضع فى قواعدها وأصولها لظروف المجتمع والبيئة ، لم يقلقنا وجود ظاهرة لغوية قد تبدو غريبة أو شاذة عما عرف عن لهجة من اللهجات .

فليست القوانين التى تخضع لها اللهجات كالقوانين الطبيعية فى الكون ، تلتزم حالة واحدة لا شذوذ فيها ، بل يكتفى اللغوى عادة حين يحكم على صفات لهجة من اللهجات بالحكم على الكثرة الغالبة من صفاتها .

على أنه من الممكن أن تنسب تحقيق الهمزة إلى اللغة الأدبية النموذجية التى أشرنا إليها آنفا ، لغة الخاصة التى كانت تلتزم فى الخطب والشعر ، وعلى هذا فليس تحقيق الهمزة من صفات اللهجات العربية التى نريد أن نعرض لها هنا .

أما كيف تخلصت لهجات الحجاز من الهمزة فيتضح مما روى عن قراءة أبى جعفر ونافع التى يمكن أن تلخص فيما يلى :

١ — إذا سكنت الهمزة وتحرك ما قبلها قلبت حرف مد مناسب لتلك الحركة مثل :

يؤمنون . بئس . فأذنوا

قرئت على الترتيب :

يومنون . بيس . فاذنوا

ب — الهمزة المتحركة وقبلها متحرك لها الأحوال الآتية :

١ — أن تكون الهمزة مفتوحة وقبلها ضم ، ويغلب فى هذه الحالة أن تبدل الهمزة واوا مثل :

يؤاخذ . الفؤاد . هزؤا

قرئت على الترتيب :

٢ — أن تكون الهمزة مفتوحة . وقبلها مكسور ، وحينئذ تبدل الهمزة ياء مثل :

رئاء الناس . خاسئا

قرئتا على الترتيب :

رياء الناس . خاسيا

٣ — أن تكون الهمزة مضمومة وقبلها كسر و بعدها واو ، وحينئذ تحذف الهمزة ويضم ما قبلها ليناسب الواو مثل :

« مستهزئون » قرئت « مستهزون »

٤ — أن تكون مضمومة وقبلها فتح ، وحينئذ تحذف الهمزة مثل :

« ولا يطؤون » قرئت « ولا يطوون »

٥ — أن تكون مكسورة بعد كسر ، وحينئذ تحذف الهمزة مثل :

« متكئين » قرئت « متكين »

٦ — أن تكون الهمزة مفتوحة بعد فتح ، وحينئذ تسهل الهمزة بين بين [1] مثل :

أرأيتكم

ح — الهمزة المتحركة وسكن ما قبلها ، تنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها ، وتحذف الهمزة سواء كان هذا فى كلمة واحدة أو كلمتين مثل :

« والأخرى » قرئت « ولخرى »

« من إله » « من له »

وقد اشتهرت هذه القراءة عن ورش القارىء المصرى الذى تعلم فى المدينة .

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية صـ ٧٨ .

الفصل الرابع

عناصر اللهجات العربيه وقبائلها

روت كتب اللغة والأدب مما ألف القدماء من علماء العربية ، صفات عدة للهجات القديمة ، ونسبت بعضا منها إلى قبائل معينة ، والبعض الآخر اكتفت بالإشارة إليه على أنه مما كانت تقوله العرب .

وقد تناثرت تلك الروايات فى ثنايا الكتب ، وفى مناسبات شتى ، فأحيانا نراها فى جدل النحاة حين تعرض مسألة نحوية ، ويحاول بعض النحاة تخريجها على رأى قبيلة خاصة ، والبعض الآخر يتأولونها على رأى آخر روى عن قبيلة أخرى ، وكل من الفريقين يستمسك برأيه ويتعصب له . وقد نجد الإشارة لصفات اللهجات فى الروايات الأدبية ، أو حين التحدث عن قبيلة من القبائل العربية .

ولا بد للاحاطة بكل ما روى عن لهجات القبائل العربية من البحث والتنقيب فى بطون المؤلفات القديمة ، وجمع كل ما يمكن جمعه ، ثم ترتيبه وتبويبه والعمل على تحقيق تلك الروايات وإخراج الزائف منها .

ولسنا ندعى هنا أننا قد أحطنا بكل تلك الروايات كما رويت فى المؤلفات

القديمة ، و إنما نرمى إلى علاج ما اشتهر من تلك الصفات علاجا علميا يكشف الطريق أمام طالب اللغة العربية فى بحوثه المستقبلة . وعلى هذا فسنعرض هنا لأشهر ما روى عن اللهجات العربية القديمة من صفات .

— ١ —

ما يتعلق بالاعراب

روى النحاة فى المطولات من كتبهم عدة مسائل اختلف فيها الرأى بينهم . وقد نسبوا هـذا الخلاف الإعرابى إلى قبائل معينة على أنهـا لهجاتهم وما تستطيعه ألسنتهم .

ويمكن أن نلخص تلك المسائل فيما يلى :

١ — ينصب الحجازيون خبر ليس مطلقا ، ولـكن بنى تميم يرفعونه إذا اقترن « بإلا » حملا لها على « ما » .

ثم يروى النحاة لهذا قصصاً ليس مصدرها فى الحقيقة إلا الصراع العلمى بين طائفتين منهم . فقد زعموا أن الأصمعى قال : « كنا عند أبى عمرو بن العلاء يوما ، فجاء عيسى بن عمر الثقفى فقال : يا أبا عمرو ما شىء بلغنى عنك تجيزه ؟ قال ما هو ؟ قال بلغنى أنك تجيز ليس الطيب إلا المسكُ ! فقال أبو عمرو نمت وأدلج الناس ، ليس فى الأرض حجازى إلا وهو ينصب ، ولا تميمى إلا وهو يرفع ! ثم قال لليزيدى ولخلف الأحمر : اذهبا إلى أبى مهدى ولقناه الرفع فإنه

لا يرفع ، ولأبى المنتجع ولقناه النصب فإنه لا ينصب . فذهبا إلى أبى مهدى فوجداه يصلى ، فلما قضى صلاته التفت إليهما وقال : ما خطبكما ؟ قالا جئنا نسألك عن شيء من كلام العرب ، فقال هاتيا ، قالا كيف تقول ليس الطيبُ إلا المسكُ ! ؟ فقال تأمرانى بالكذب على كبر سنى ؟ ! فقال خلف : ليس الشراب إلا العسلُ ! فأدرك أبو مهدى مقصوده وقال له : ليس ملاك الأمر إلا طاعةَ الله . فقال خلف معقبا على قوله : هذا كلام لا دخل فيه ، ليس ملاك الأمر إلا طاعةَ الله !! فأعادها أبو مهدى بالنصب وقال لهما : ليس هذا لحنى ولا لحن قومى . ثم أتيا أبا المنتجع فقال له خلف : كيف تقول ليس الطيب إلا المسكَ ؟ ! فقالها ورفع ، فجهدا به أن ينصب فأبى إلا الرفع . ثم رجعا إلى ابن أبى العلاء وأخبراه الخبر وعيسى عنده لم يبرح ، فأخرج عيسى خاتمه من يده وقال له : ولك الخاتم بهذا ، والله فقت الناس » !

٢ — قسم النحاة « ما » النافية إلى حجازية وتميمية ، وقرروا أن خبر « ما » يكون منصوبا عند الحجازيين ، ومرفوعا عند بنى تميم . وقد اشترط النحاة شروطا لنصب خبر « ما » عند الحجازيين ، مما هو معروف فى المطولات من كتب النحو .

٣ — ينصب الخبر بعد « إن » النافية فى لهجة أهل العالية ، ويروى أنه سمع من بعضهم [إن أحد خيراً من أحد إلا بالعافية] .

٤ — بنو أسد يصرفون ما لا ينصرف ، ويقع منهم ذلك فيما علة منعه الوصفية وزيادة الألف والنون ، فيقولون [لست بسكرانٍ] .

٥ — لهجة تميم تنصب تمييز « كم » الخبرية مفرداً ، ولهجة غيرهم توجب

جره وتجيز إفراده وجمعه . فبنو تميم يقولون : كم درهما أنفقت ؟ وغيرهم يقولون : كم درهمٍ أنفقت ؟ وكم عبيدٍ ملكت ؟ ولهذا كان قول الفرزدق [كم عمة لك يا جرير وخالة] موضع نقاش وجدل بين النحاة يمكن الرجوع إليه فى المطولات من كتبهم .

٦ — « لعل » الجر فى اسمها عند عقيل ، قال شاعرهم :

لعل الله فضلكم علينا . . .

٧ — وتعمل « متى » عمل « من » الجارة عند هذيل ، قال شاعرهم :

شربن بماء البحر ثم ترفعت   متى لجج خضر لهن نئيج

هذه هى أمثلة مما روى النحاة فى كتبهم ، ونسبوه إلى اختلاف اللهجات العربية . والحق أن هذا النوع من الاختلاف الإعرابى لايمت للهجات العربية بصلة ، وإنما هو من صناعة النحاة حين اشتد الجدل بينهم ، وحاول كل فريق أن يأتى بجديد فى تلك القواعد الاعرابية التى ملكت عليهم شاعرهم ، وصرفتهم عن كثير من البحوث القيمة فى اللغة . فلم تكن لهجات الكلام عند القبائل تلتزم الاعراب على الصورة التى رويت لنا فى كتب النحاة ، وإنما التزم الاعراب على تلك الصورة فى اللغة الأدبية التى نزل بها القرآن الكريم ونظم بها الشعر . وقد كان الاعراب من الظواهر اللغوية ، التى عنى بها الخاصة من العرب فى خطبهم وشعرهم ، وعدّ بينهم مما يفخر به الأديب ويمهر فى مراعاته . أما فى لهجاتهم ولغة التخاطب بينهم فلا نكاد نعلم شيئاً عن قواعد إعرابهم ، وعما التزموه فى تحريك أواخر الكلمات أو إسكانها . فالاعراب كما نعرفه لم يكن

الا مسألة مواضعة بين الخاصة من العرب ، ثم بين النحاة من بعدهم ، ولم يكن مظهراً من مظاهر السليقة اللغوية بين عامة العرب . ويدل على هذا شعورهم بقواعده وقوانينه منذ العهد الجاهلى ، فإذا خرج أديب عن تلك القواعد عيب عليه هذا .

والا فكيف نتصور من الناحية الصوتية أن لساناً يعجز عن نصب خبر « ما » أو نصب اسم « لعل » أو جر تمييز « كم » الخبرية ؟ !

فراعاة الناحية الاعرابية كانت من صفات اللغة الأدبية ، بل لقد كون فيها عنصراً عظيم الأهمية ، عدّ منذ الجاهلية مقياساً من مقاييس الفصاحة .

ويظهر هذا الاهتمام بظاهرة الاعراب فى تلك اللغة الأدبية ، من تلك الأمثلة التى يسوقونها للحن بعض الشعراء والكتاب . فقد رووا أن رجلا لحن فى حضرة النبى فقال رسول الله : أرشدوا أخاكم . ولا يعقل صاحب السليقة اللغوية يخطئ الا اذا كان ينطق بلغة خاصة يتمسك فيها بقواعد وأصول لا نراعى فى حياته العادية ، وحين ينطلق على سجيته . كذلك سمع عمر بن الخطاب لحنا من الاعراب ، وكذلك علىّ بن أبى طالب . وقد عاب العرب على النابغة الذبيانى وبشر بن أبى خازم الاقواء فى شعرهما . وليس الاقواء فى الحقيقة الا لحنا فى الاعراب وخروجا عن قواعده . ولم يستطع أحد أن يصارح النابغة ، وهو من خاصة الخاصة ، بهذا العيب ، حتى دخل يثرب مرة فأسمعوه غناء قوله :

أمن آل مية رائح أو مغتدى … عجلان ذا زاد وغير مزود

زعم البوارح أن رحلتنا غدا … وبذاك حدثنا الغراب الأسود

ففطن لهذا وغيره الى قوله [وبذاك تنعاب الغراب الأسود] .

كما عيب على الفرزدق قوله :

وعض زمان يابن مروان لم يدع من الناس الا مسحة أو مجلف

وأمثلة هذا اللحن الاعرابى فيما سموه بعصور الاحتجاج كثيرة ، ملئت بها كتب اللغة والأدب ، وكلها تدل على قدر اهتمام القوم بناحية القواعد الاعرابية منذ العصر الجاهلي .

— ٢ —

ما يتعلق بالناحية الصوتية

حين نعتمد على تلك الروايات المبتورة الناقصة التى رويت لنا متناثرة فى بطون كتب اللغة والأدب ، نجد أنفسنا أمام صفات صوتية نسبت لبعض القبائل ، دون تحقيق كاف فى الرواية والنقل . فلاعجب أن يتخللها لهذا ، بعض الخلط و بعض اللبس الذى لا سبيل إلى التخلص منه إلا بعد دراسة اللهجات الحديثة دراسة مستفيضة مبنية على أسس علمية صحيحة . على أننا حين نستعرض تلك الروايات ، أو بعبارة أدق ما اشتهر منها ، نستطيع أن نقسم القبائل العربية بصفة عامة إلى طائفتين ، يشترك أفراد كل طائفة فى صفات صوتية واحدة :

١ — فهناك قبائل بدوية عاشت فى صحراء الجزيرة منعزلة ، مما أدى إلى اصطباغها بصبغة خاصة .

٢ — وهناك قبائل متحضرة عاشت فى بيئة حضرية قريبة من المدن

العربية ، أو فى ديار المدن نفسها ، وتلك قد اتصفت بصفات صوتيـة تخالفه صفات الأولى . وقد اتصلت هذه القبائل فى بيئتها الحضرية بلغات أجنبية أثرت فى لهجاتها إلى حد ما . فالقبائل التى عاشت فى مدن الحجاز أو متاخمة لها ، والتى عاشت فى مدن اليمن المتحضرة ، وكذلك تلك التى اتصلت بعض الاتصال بمدن العراق ، نراها جميعاً ذات صبغة واحدة ، تخالف تلك التى انعزلت فى صحراء الجزيرة وباديتها .

وقد نجد بعض صفات قليـلة مشتركة بين هؤلاء وهؤلاء ، ويصعب فى بعض الأحيان تبريرها ، ولـكن حين تتم معرفتنا بتنقلات تلك القبائل ، واتصالها بغيرها ، سنعرف السر فى هذا الاشتراك . فلعل من القبائل البدوية ما تأثر فى بعض النواحى ببيئة حضرية ، وكذلك العكس .

أما الصفات الصوتية التى نلحظها فى لهجـات القبائل البدوية بوجه عام فهى :

١ — الميل إلى الإمالة :

تحدثنا آنفا عن طبيعة الإمالة من الناحية الصوتية ، وقلنا إنها المرحلة الثانية للصوت المركب الذى يسميه المحدثون Diphthong ، كما قررنا أنه قد تـكون إمالة إلى الـكسر فى حالة ai ، وإمالة إلى الضم فى حالة au . وقد وقفت القبائل البدوية عند مرحلة الإمالة ، ولم تتطور الامالة فى ألسنتهم إلى الفتح كما حدث عنـد الحجازيين ؛ وذلك لانعزال البيئات البدوية وبطء التطور فى لهجاتها .

وإذا نسبنا الإمالة إلى قبائل وسط الجزيرة وشرقيها فليس معنى هـذا أن

جميع هذه القبائل يميل بنسبة واحدة ، بل يظهر أن إمالة قبائل وسط الجزيرة كانت تلك الامالة الشديدة ، أما إمالة القبائل المتاخمة لمدن العراق فقد كانت إمالة خفيفة ، أى قريبة من الفتح .

هذا حين تكون الامالة نتيجة أصل يائى أو واوى كما أشرنا آنفا كامالة نحو « باع ، قام » ، أما حين تكون الامالة نتيجة انسجام بين أصوات اللين كما فى إمالة نحو « كتاب » ، فتلك صفة اختصت بها القبائل البدوية ، وقد سبقت فيها القبائل المتحضرة التى عنيت بتحقيق الأصوات ومنع تأثرها بعضها ببعض .

٢ — الميل إلى الضم :

مالت القبائل البدوية بوجه عام إلى مقياس اللين الخلفى المسمى بالضمة ، لأنه مظهر من مظاهر الخشونة البدوية . فحيث كسرت القبائل المتحضرة وجدنا القبائل البدوية تضم . والكسر والضم من الناحية الصوتية متشابهان ، لأنهما من أصوات اللين الضيقة[١] .

لهذا تحل إحداهما محل الأخرى فى كثير من الظواهر اللغوية . غير أن الكسر دليل التحضر والرقة فى معظم البيئات اللغوية ، فهى حركة المؤنث فى اللغة العربية ، والتأنيث عادة محل الرقة ، أو ضعف الأنوثة . ولا شك أن الحضرى أميل إلى هذا بوجه عام .

ومما نلاحظه أن اللغة العربية فى تطورها إلى اللهجات الحديثة مالت فى

---

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية ص ٣٨ .

غالب الأحيان إلى التخلص من بعض ضماتها ، و إبدال الكسرة بها حين استقرت فى المدن والبيئات المتحضرة .

٣ — الميل إلى الأصوات الشديدة :

مالت القبائل البدوية إلى الأصوات الشديدة فى نطقها ، وهو أمر طبيعى يلتئم مع ما عرف عن البدو من غلظة وجفاء فى الطبع . لأن هذه الأصوات سريعة النطق بها ، حاسمة ، ثم إن ما فيها من عنصر انفجارى ينسجم وسرعة الأداء عند الأعراب .

وبهذا يتميز نطقهم بسلسلة من الأصوات القوية السريعة التى تطرق الآذان كأنما هى فرقعات متعددة ، فى حين أن أهل المدن المتحضرة يميلون إلى رخاوة تلك الأصوات الشديدة بوجه عام ، إذ فيها من التؤدة والليونة ما ينسجم مع بيئتهم وطبيعتهم .

فالباء والتاء والدال والكاف ، وغيرها من الأصوات الشديدة ، قد نسمعها فى أفواه المتحضرين :

فاء . سينا . زايا . شينا   على الترتيب

٤ — الميل إلى جهر الأصوات :

فى مثل تلك الصحراء الشاسعة الخالية من مظاهر المدنية ، قد تفنى الأصوات فى جو لا آخر له ، إذ يتحدث الناس غالبا فى العراء ، وقد افترشوا الغبراء والتحفوا السماء ، وليس هناك من حائل يصد موجات الصوت ، أو يركزها ، بل تنساب الأصوات فى محيط من الفضاء تخفى فيه الأصوات فلا تكاد تبين .

ولا شك أن الأصوات المجهورة أوضح فى السمع ، تتلقاها الأذن فى مسافة عندها قد تخفى نظائرها المهموسة .

لهذا كان من المعقول، بل ومن المشاهد، أن البيئات المتمدنية التى تتحدث بين جدران المنازل ، والتى لا ترى داعيا لوضوح الصوت بنسبة أكبر مما يتطلبه السامع القريب ، تميل عادة إلى همس الأصوات .

ولقد دعت الحضارة منذ القدم ، بل ودعت آداب الاسلام إلى خفض الصوت ، مما ترتب عليه أن شاعت الأصوات المهموسة فى البيئة العربية المتحضرة . ومما لاحظه المحدثون من علماء الأصوات أن النساء بصفة خاصة يملن إلى همس الأصوات وهو ما يتفق وطبيعتهن .

فكل « سين » عند الحضريين قد ينطق بها « زايا » عند البدو ، وكل « تاء » عند الحضريين قد ينطق بها « دالا » عند أبناء البدو . . . وهكذا . هذا إلى أن الأصوات المهموسة تتطلب جهداً أكبر فى التنفس ، مما لا يتفق وطبيعة البدوى الهادئ الوادع الذى يقتصد فى كل حركاته وسكناته . فما تحتاجه عبارة مثل « سكت شخص » من تنفس حين النطق بها أضعاف ما تحتاجه عبارة مثل « زرع رجل » ، لأن كل أصوات العبارة الثانية مجهورة ، فى حين أن كل الأصوات الساكنة فى العبارة الأولى مهموسة .

٥ — الميل إلى الإطباق :

أصوات الاطباق أصوات مفخمة ، لها رنة قوية فى الآذان ، مما يلائم طباع البدو وخشونتهم . فلا عجب إذن أن تشيع تلك الأصوات فى لهجات البدو ، وأن تأخذ فى الانقراض من ألسنة المتحضرين .

واللغة العربية بصفة عامة قد مالت فى تطورها الى التخلص من أصوات الاطباق ، أى الصاد . الظاء . الضاء . الطاء . اذ نسبة شيوع هذه الأصوات فى الأسلوب القرآنى ضئيلة جداً . فنسبة شيوع الصاد ٨ مرات فى كل ألف من الأصوات الساكنة ، والضاد ٦ مرات ، والطاء ٤ مرات ، والظاء ٣ مرات ، فى حين أن صوتاً كالنون مثلا نسبة شيوعه حوالى ١١٢ مرة فى كل ألف من الأصوات الساكنة .

وقد مالت اللهجات الحديثة الى التخلص من هـذه الأصوات فى معظم المواضع . ولقد روى عن تميم أنهم كانوا يقلبون « السين » « صادا » عنـد بعض الأصوات المفخمة كأصوات الاطباق ، وكذلك الكاف والغين والخاء إذا كنّ بعد « السين » مثل :

سراط = صراط		سخر لكم = صخر لكم

سيقل = صيقل		سبغة = صبغة

٦ — الميل إلى أصوات الفم :

ونعنى بهذا أننا نلاحظ بوجه عام حرص اللغة العربية على مجرى الصوت فى الفم ، بحيث يتسرب النفس من الفم دون أن يتجه إلى الأنف ، إلا مع الميم والنون . على أنه روى لنا أن بعض القبائل قد مالت إلى قلب بعض أصوات الفم إلى نظائرها من أصوات الأنف . وليس لمثـل هذا ما يبرره سوى احتمال الاتصال بعنصر أجنبى عن اللغة العربية . ولا شك أن مثل هذا الاتصال إذا صح حدوثه ، لا يكون إلا حيث اختلط العرب بعناصر أجنبية عنهم فى

المدن والبيئات المتحضرة . فصفة الميل إلى أصوات الفم من صفات العرب جميعاً ، إلا حين يتأثرون بغيرهم ممن شاع فيهم الميل إلى أصوات الأنف كاليهود مثلا .

تلك هي الصفات الصوتية العامة التى نستطيع هنا أن نرجحها للهجات العربية القديمة ، موزعة بين طائفتين منهم : أولئك الذين انعزلوا فى البادية وعاشوا معيشة البدو ، وأولئك الذين اتصلوا بالبيئات المتحضرة وتأثروا بها .

لنبدأ بعد هذا فى تطبيق تلك الصفات الصوتية العامة على نصوص الروايات المتناثرة فى كتب اللغة والأدب .

أولا : الإمالة :

أجمعت الروايات على نسبة الامالة لقبائل وسط الجزيرة من : تميم . أسد . قيس عيلان وعامة نجد ، في حين أن الفتح قد نسب إلى قبائل الحجازيين .

وقد تحدثنا عن الامالة من قبل بما فيه الكفاية .

ثانيا : الميل إلى الضم :

ا — المشهور فى مثل « يأيها الناس » بناء الهاء على الفتح ووصلها بألف تظهر عند الوقف ، ولكن لهجة « بنى مالك » من « بنى أسد » تضمها ، فيقولون « يا أيهُ الناس » .

ب — المشهور في اسم الموصول « الذين » التزام حالة واحدة وهى الياء ، ولكن قبيلة هذيل أو عقيل [شك من الرواة] يعربونه إعراب جمع المذكر السالم ، قال شاعرهم :

نحن اللذون صبحوا الصباحا   يوم النخيل غارة ملحاحا

جـ — بنو تميم يعربون كلمة « أمس » وعليه فيجوز رفعهـا ، فى حين أن الحجاز يبنونها على الـكسر .

د — قرأ يعقوب وحمزة ، وهما عراقيان أو ممن تأثروا بالبيئـة البدوية ، كما أشرنا من قبل « عليهُم و إليهُم »

فدل هذا على أن من القبائل من يؤثرون ، الضم ، أو بعبارة علمية صوت اللين الخلفى .

ثالثا : الميل إلى الكسر فى البيئة الحضرية :

أشرنا قبلا إلى أن بعض القبائل التى تأثرت بحياة الحضر قد آثرت صوت اللين الأمامى الذى نسميه بالـكسرة ، وقلنا ان مثل هذه الظاهرة مما يمكن أن يعدّ من صفات الرقة أو الأنوثة فى بعض الأحيـان . وقد روى لنا أن بعض القبائل التى عاشت فى حدود الشام وتأثرت بمدنها واللغات المنتشرة فيها ، قد شاع بينها هذا المظهر الصوتى ، كما شاع فى غيرها من قبائل عربية متحضرة :

ا — فالمشهور أن حرف المضارعة يكون مفتوحاً دائمـا ما لم يكن الفعل رباعياً فيضم ، ولـكن لهجة « بهراء » تؤثر كسره مطلقاً . و « بهراء » هذه قبيلة فى « قضاعة » كانت مساكنهم متاخمـة لحدود الشام ، ومتأثرة بمدنها وبما انتشر بها من لغات كالآرامية والعبرية اللتين اطرد فيهما كسر حرف المضارعة

وقد سمى القدماء هذه الظاهرة « تلتلة » بهراء ، ومثلوا لها بقول الشاعر :

لو قلت ما فى قومها لم تيثم ... يفضلها فى حسب وميسم

ب — تلك الظاهرة التى سماها القدماء « بوكم » بنى كلب حينا ، و بوهمهم

حينا آخر ، ليست فى الحقيقة إلا إيثاراً لصوت اللين الأمامي ، أى الـكسر ، على صوت اللين الخلفى ، أى الضم .

فحيث ضم كثير من قبائل البدو كاف الخطاب في « عليكم » كسرها بنو كلب فقالوا « عليكِم » وهذا هو « الوكم » ، وحيث ضم كثير من قبائل البدو ضمير الغيبة فى « منهم » جاء بنو كلب وآثروا الـكسر فقالوا « منهِم » وهذا هو « الوهم » .

و بنو كلب هؤلاء فرع من قضاعة أيضاً ، ترددت مساكنهم بين تخوم الشام وما يقرب من بلاد العراق . لهذا كان من الطبيعى أن يتأثروا بما انتشر بتلك البقاع من لغات سامية كالآرامية والعبرية ، وكلاهما آثر الـكسر فى مثل هذه الضمائر .

رابعا : الميل إلى الأصوات الشديدة :

من مظاهر اضطراب الروايات فى كتب اللغة والأدب أن تنسب صفة خاصة من صفات اللهجات لشعب عظيم يتكون من عدة قبائل ، ثم فى موضع آخر تنسب له صفة أخرى مناقضة للأولى .

ونحن نقف أمام تلك الروايات المتناقضة حيارى لا ندرى أيهـا نصدق ، و بأيها نأخـذ ! ولـكننا إذا نظرنا إلى تلك المجموعة من القبائل وجدنا بعضا منها قد تأثر ببيئة بدوية والبعض الآخر يبدو تأثره ببيئة حضرية . فعلينا فى مثل هـذه الحالة أن ننسب الصفة إلى ما يناسبها من قبائل ذلك الشعب العظيم مهتدين بتلك القاعدة العامة التى قررناها ، وهى أن ظواهر اللهجات فى

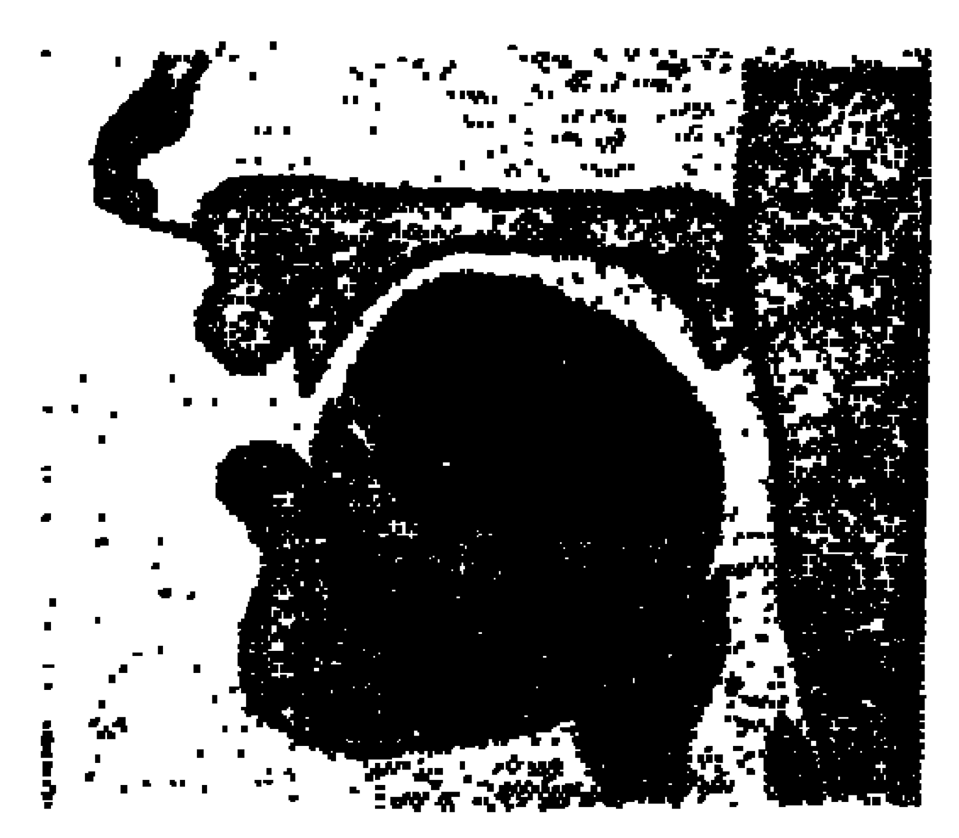
القبائل البدوية تخالف إلى حد كبير ظواهرها فى القبائل المتحضرة التى عاشت فى المدن . فمثلا تنسب الروايات صفة الشدة فى الصوت لليمن دون تعيين قبيلة فيها ثم فى موضع آخر تنسب صفة الرخاوة لقبائل يمنية أيضاً ، فواجب الباحث المدقق أن يقسم قبائل اليمن إلى بدوية وحضرية ، ثم ينسب الشدة للبدوية منها ، والرخاوة للحضرية . وبذلك نستطيع بقدر الإمكان التوفيق بين تلك الروايات المتناقضة :—

١ — فمثلا روى أن « السين » تقلب « تاء » فى لهجة اليمن ، فيقولون « النات » فى « الناس » . فنحن هنا أمام شعب عظيم من القبائل تنسب له صفة خاصة من صفات اللهجات وهي قلب صوت رخو إلى نظيره الشديد . فعلينا أن نبحث فى مثل هذه الحالة عن أى قبائل اليمن تلك التى مالت إلى البداوة أو عاشت قريبة من الصحراء ، فنجد أن أقرب قبائل اليمن إلى البداوة قبيلتان مشهورتان هما : خثعم ، زبيد . وعليه فلا بأس من نسبة هذه الصفة إلى هاتين القبيلتين بين قبائل اليمن .

أما المبرر الصوتى لانقلاب « السين » « تاء » فهو هين واضح ، لأنهما يكادان يكونان متماثلين فى المخرج ، كما أن كلا منهما صوت مهموس ، ولم يبق إذن إلا أن يلتقى طرف اللسان بأصول الثنايا العليا التقاء محكما به ينحبس النفس ، حتى إذا انفصلا انفصالا مفاجئا سمع ذلك الصوت الانفجارى الذى نسميه بالتاء ، فى حين أنه فى حالة النطق بالسين نلحظ أن انحباس النفس لا يكون محكما ، بل هناك فراغ ضيق بين طرف اللسان وأصول الثنايا العليا ليتسرب منه الهواء ، كما ترى فى الشكلين الآتيين :



(شكل ٣)
وضع اللسان مع « التاء »



(شكل ٤)
وضع اللسان مع « السين »

ب — كذلك روى أن من قبائل اليمن من ينطقون « بالجيم » شديدة لا رخاوة فيها ، أى تماثل تلك الجيم الشائعة فى اللهجة القاهرية الحديثة . فإذا قارنا بين « الجيم » اليمنية والجيم الفصيحة كما وصفت فى كتب القراءات وجدنا فرقامن ناحيتين : الأولى أن «الجيم» اليمنية أكثر شدة ، والثانية أن مخرج «الجيم» اليمنية هو أقصى الحنك ، ولكن مخرج « الجيم » الفصيحة هو وسط الحنك .

فما حدث فى نطق اليمنيين « للجيم » هو انتقال المخرج إلى الوراء قليلا ، وانحباس النفس معها انحباسا كاملا ، رغم احتفاظ كلا الصوتين بصفة الجهر .

حقا أن « الجيم » الفصيحة تعدّ صوتا أقرب إلى الشدة منها إلى الرخاوة ، ولكن « الجيم » اليمنية قد كملت شدتها ، وذلك من صفات البيئة البدوية .

وليس ينقض ما قررناه آنفا أن نرى تلك « الجيم » اليمنية شائعة فى البيئة القاهرية وغيرها من بعض مدن القطر المصرى ، لأنها لم تنشأ فى البيئة المصرية ، وإنما وفدت إليها مع من أقام بها من قبائل .

وقد نسبت هذه « الجيم » أيضاً لبعض قبائل طىء وهم كما نعرف من البدو الذين عاشوا فى بعض نواحى نجد .

وإذا كان علينا أن نتخير من قبائل اليمن من نرجح نسبة مثل هذه الصفة إليه ، لم نجد خيرا من قبيلتي : خثعم ، زبيد .

حـ — اشتهر بين صفات اللهجات العربية ظاهرة أطلق عليها القدماء اسم « العجعجة » ، وقالوا عنها إنها قلب الياء جيما .

وتعد هذه العملية الصوتية انتقالا بصوت لا هو بالشديد ولا الرخو ، وهو « الياء » إلى صوت آخر أميل إلى الشدة منه إلى الرخاوة : وهو « الجيم » . ولعل هذه الظاهرة من صفات القبائل البدوية أيضاً .

وقد نسب القدماء هذه الصفة إلى شعب عظيم هو قضاعة . ولكننا نعلم أن قضاعة قد تفرعت إلى سبعة أحياء :

بلي . جهينة . بنو كلب . عذرة . بهراء . بنونهد . جرم

وبين هذه الأحياء السبعة من تأثروا بالحياة الحضرية ، كما أن بينهم من عاشوا عيشة البداوة . وخير من يمكن نسبة هذه الصفة إليه من أحياء قضاعة :

جهينة أو جرم .

فالعجعجة لم تكن فى الحقيقة صفة كل أحياء قضاعة ، وإنما يحتمل أنهـا كانت صفة هذين الحيين فقط .

وقد قيد الرواة عجعجة قضاعة بأن تسبق « الياء » « بالعين » !! وضربوا لأمثلة لهذا مثل :

« الراعج خرج معج » أى « الراعى خرج معى » .

ويظهر أن « الياء » فيما ساقوه من أمثلة لم تكن فى نطق القضاعيين ياء

مد ، بل كانت صوتا ساكنا ، أى أنه كان ينطق بها « الراعىْ » ، حتى يمكن أن نتصور قلبها إلى جيم .

وقد نسبت هذه الصفة أيضاً إلى « فقيم دارم » فى قبيلة تميم ، وهو ما يؤيد ما نذهب إليه من احتمال وجود هذه الصفة بين البدو من القبائل . ولم تقيد هذه الصفة بأى قيد حين نسبت إلى « فقيم دارم » ، فقد أنشد أبو زيد :

يا رب إن كنت قبلت حجتجْ فلا يزال ساجح يأتيك بجْ

وقال الحماسى :

خالى عويف وأبو علجّ المطعمان الضيف فى العشجّ

أما العلاقة بين الياء والجيم من الناحية الصوتية فواضحة جلية ، لأن كلا منهما صوت مجهور ، ومخرجهما واحد ، وإنما تختلف الجيم عن الياء فى أن الأول صوت أقرب إلى الشدة منه إلى الرخاوة ، فى حين أن الياء من الأصوات المتوسطة الشبيهة بأصوات اللين ، وليست بشديدة ولا رخوة .

وربما قد التجأت تلك القبائل إلى الانتقال بالصوت من صفة اليسر إلى صفة العسر قصد التفخيم فى الكلام ، وهو ما لا نستطيع تصوره إلا بين قبائل البدو .

علينا بعد هذا أن ننظر إلى ذلك القيد الذى قيدت به لهجة قضاعة ، وهو أن تسبق الياء بالعين ! !

فى الحق أنه ليس لهذا القيد ما يبرزه من الناحية الصوتية ، اللهم أن يقال إن كلا من العين والياء من الأصوات المتوسطة التى ليست بالشديدة ولا الرخوة ،

وتفخيم القول يقتضى أن يقلب أحدهما إلى نظير له شديد ، فكانت الجيم بدل الياء .

ولكن لم كانت العين وحدها دون باقى الأصوات المتوسطة الأخرى من ميم ونون وراء ولام ؟ ! هذا مالا نستطيع الاجابة عنه الآن لنقص معرفتنا بكل طبائع اللهجات العربية القديمة .

ه — روى أن بعض القبائل العربيه ، كانوا يقلبون فى لهجاتهم « الميم » « باء » ، و « الباء » « ميا » ! وقد نسب الرواة هذه اللهجة إلى « مازن » من ربيعة ، كما نسبت إلى بكر بن وائل وهى من قبائل ربيعة كذلك . ثم يروون قصة طريفة لا بأس من إيرادها هنا وهى :

« روى المبرد أن بعض أهل الذمة قصد أبا عثمان المازنى إمام الصرفيين فى زمانه ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، و بذل له مائة دينار فى تدريسه إياه ، فامتنع أبو عثمان من ذلك . قال فقلت له : جعلت فداك ، أترد هذه المنفعة مع فاقتك وشدة إضاقتك ! ؟ فقال : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة و كذا وكذا آية من كتاب الله عز وجل ، ولست أرى أن أمكن منها ذميا غيرة على كتاب الله وحمية له . قال فاتفق أن غنت جارية بحضرة الواثق بالله بقول العرجى :

أظلوم إن مصابكم رجلا   أهدى السلام تحية ظلم

فاختلف من كان بالحضرة فى إعراب « رجلا » ، فنهم من نصبه ومنهم من رفعه ، والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازنى لقنها إياه بالنصب . فأمر الواثق بإشخاصه . قال أبو عثمان : فلما مثلت بين يديه ، قال ممن الرجل ؟ قلت من بنى مازن . قال أى الموازن ، أمازن تميم أم مازن ربيعة ؟ قلت مازن

ربيعة . فكلمنى بكلام قومى وقال : « يا اسمك » ؟ لأنهم يقلبون الميم باء والباء ميما ! قال فكرهت أن أجيبه على لغة قومى كيلا أواجهه بالمكر ! فقلت بكر يا أمير المؤمنين ! ففطن لما قصدته وأعجب به . ثم قال : ما تقول فى قول الشاعر : أظلوم إن مصابكم رجلا ؟ أترفع رجلا أم تنصبه ؟ فقلت : بل الوجه النصب يا أمير المؤمنين . فقال : ولم ذلك ؟ فقلت : إن مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم . فأخذ اليزيدى فى معارضتى ، فقلت هو بمنزلة قولك : إن ضربك زيداً ظلم ، والدليل عليه أن الكلام يعلق إلى أن تقول : « ظلم » فيتمّ . فاستحسنه الواثق وقال : هل لك من ولد ؟ فقلت : نعم ، بنية يا أمير المؤمنين . قال : ما قالت لك عند مسيرك ؟ فقلت أنشدت قول الأعشى :

أيا أبتـــا لا ترِمْ عنـدنا فإنا بخـــير إذا لم ترم
أرانا إذا أضمرتك البـلا د تجفى وتقطع منا الرحم

قال : فما قلت لها ؟ قال قلت قول جرير :

ثقى بالله ليـس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح

قال: علىّ النجاح إن شاء الله تعالى . ثم أمر لى بألف دينار وردنى مكرما.

قال المبرد : فلما عاد إلى البصرة ، قال لى كيف رأيت يا أبا العباس ، رددنا لله مائة ، فعوضنا ألفاً . » .

نحن هنا أمام رواية غريبة لا تبررها القوانين الصوتية . فليس هناك لهجة من لهجات اللغات فى العالم تلتزم قلب كل ميم إلى باء والعكس ، لأنها عملية متناقضة لا مبرر لها . بل قد يكون من المغالاة أن نفترض أن لهجة من اللهجات تلتزم قلب أحد هذين الصوتين إلى الآخر .

حقاً أن هناك علاقة صوتية بين « الميم » و « الباء » ، إذ كلاهما صوت شفوى ، ولـكن مثل هذه العلاقة وحدها لا يكفى مبرراً لمثل هذه الظاهرة . نعم أن من لهجات العالم ما تتضمن شيئا من هذه الظاهرة ، وذلك حين نلاحظ قلب « الميم » « باء » فى بعض المواضع، أو « الباء» « ميا » فى مواضع أخرى ، ولـكن هذا مقيد بوجود « الميم » أو « الباء » فى مواضع خاصة من الـكلمات ، وأن يكتنفهما أصوات خاصة تساعد على هذا الانقلاب .

فليست المسألة قاعدة مطردة فى كل « ميم » وفى كل « باء » .

فنحن فى تحقيق هذه الرواية بين أمرين :

١ — إما أن نشطرها شطرين : الشطر الأول وهو قلب الميم باء ، والشطر الثانى هو قلب الباء ميا ، ثم ننسب كل شطر إلى قبيلة خاصة أو لهجة خاصة .

٢ — أو ألا ننسب هذه الظاهرة لبيئة خاصة ، و إنما ننظر إليها على أنها مما يعرض للأصوات من تطور وتغير .

وعلى الرأى الأول وهو نسبة شطر من هذه الظاهرة إلى لهجة خاصة نرى أن القبيلة التى يمكن أن يشيع فيها قلب « الميم » « باء » ، قبيلة من القبائل البدوية التى تميل إلى الأصوات الشديدة ، لأن « الباء » تختلف عن « الميم » فى شيئين : أحدهما أن «الباء» صوت شديد ، وثانيهما أن مجرى النفس معها من الفم ، فى حين أن مجرى النفس مع « الميم » من الأنف ، وأنها من الأصوات المتوسطة الشبيهة بأصوات اللين أى ليست بالشديدة ولا الرخوة .

أما الشطر الثانى وهو قلب « الباء » « ميما » فهو انتقال من صوت شديد إلى صوت متوسط هو أحد الأصوات المائعة « Liguids » ، وربما كان هذا أقرب إلى بيئة حضرية منه إلى بيئة بدوية .

والموازن كما اتضح لنا من القصة السابقة ثلاثة : مازن ربيعة . ومازن تميم ومازن قيس .

ولعل مازن ربيعة أقرب الثلاثة إلى البيئة الحضرية ، وأكثرها احتمالا للتأثر بهذه البيئة .

وعلى هذا يمكن أن ننسب لمازن ربيعة قلب « الباء » « ميما » ، وأن ننسب لمازن تميم وقيس قلب « الميم » « باء » .

على أنه حتى فى هذا يجب ألا يُعدّ هذا الانقلاب بمثابة ظاهرة مطردة ، نجده فى كل « ميم » وفى كل « باء » ؛ بل يكفى أن نقول إن مازن ربيعة كانوا يقلبون « الباء » « ميما » فى بعض المواضع ؛ وإنّ مازن تميم كانوا يقلبون « الميم » « باء » فى بعض المواضع أيضا ، وبشروط خاصة فى كل من الحالين ، وإلاّ ترتب على اطراد مثل هذه الظاهرة أن نجد لهجة من اللهجات العربية خالية من الميمات أو الباءات !

أما تلك الشروط الخاصة فلا نستطيع استنباطها مع ما لدينا من معلومات ناقصة عن اللهجات العربية القديمة .

وعلى الرأى الثانى وهو الراجح ، فيمكن أن نفسر هذه الظاهرة على أنها لا تختص بقبيلة ما ، وإنما قد صادف أن سمعها بعض الرواة من قوم من مازن [أيا كانت مازن هذه] فنسبها إليها ، ثم جرى المؤلفون بعده على هذا ، دون تحقيق أو نظر فى صحة هذه الرواية .

والحقيقة أن مثل هذه الظاهرة مما يمكن أن ينسب إلى أية لهجة من اللهجات المنعزلة ، لا على أنها مطردة بل مقيدة بشروط خاصة .

وهذه الظاهرة ليست إلا نتيجة أخطاء الأطفال فى البيئة المنعزلة التى لا يجد فيها الطفل فرصة كافية لإصلاح أخطائه ، فيشب عليها وتصبح فيما بعد نطقاً جديداً فى جيله .

فلنتصور بيئة منعزلة غير مستقرة على حال ، لا يجد فيها الأطفال من رعاية الآباء ما يستحقونه ، وذلك لانشغال الرجال بأمور الحرب أو السفر فى تجارة زمنا طويلا، كما أن النساء منصرفات عن أبنائهن بشئون الحياة العسيرة الشاقة ، ولا يجدن من الوقت مع ما هن فيه من مشقة وعسر ، ما يكفى للنظر فى شئون أطفالهن والتحدث إليهن حديثاً هادئاً وادعا يصلح من نطقهم ويرشدهم إلى طريق الصواب .

هنا ترى الأطفال ، ولما تكمل مراحل نطقهم ، يلازم بعضهم بعضا ، ويتحدث بعضهم إلى بعض ، ونرى الطفل الكبير فيهم يأخذ مكان الأم أو الأب فى تعليم الآخرين والتأثير فى نطقهم . فإذا شب هذا الجيل الجديد احتفظ فى لهجته ببعض أخطاء الطفولة التى تصبح فيما بعد عنصرا معترفا به فى لهجتهم ، وظاهرة من ظواهرها . وتلك هى سنة التطور اللغوى . فما كان يعد بالأمس خطأ تنفر منه الآذان أصبح اليوم صوابا فى جيل جديد من المتكلمين .

وليست تقتصر أخطاء الأطفال على ما يتعلق « بالميم » « والباء » ، بل هى أعم من هذا وأشمل ، ولها ظواهر كثيرة يمكن الرجوع إليها فى كتب الأصوات اللغوية[١] .

---

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١٤٥ .

فما يعرض « للميم » أو « الباء » فى أخطاء الأطفال ليس إلا مثلا منها . ومما أيدته تجارب المحدثين من علماء الأصوات أن الأطفال بصفة عامة يميلون إلى قلب صوت من أصوات الفم إلى نظيره من أصوات الأنف فى بعض الأحيان، كما أنه قد يحدث العكس عند الأطفال قبل أن تتم مراحل نمو لغتهم . لأن الطفل فى نطقه يتلمس أيسر الطرق ، وما لا يكلفه جهدا عضليا . وهو لهذا لا يميل إلى الجمع بين صوتين أحدهما مجراه الأنف « كالميم » « والنون » ، والآخر مجراه الفم كباقى الأصوات . ولهذا يميل إلى جعل مجرى كلا الصوتين المتجاورين إما من الفم فقط ، أو الأنف فقط .

لهذا قد نسمع بعض أطفالنا فى المراحل الأولى يقولون فى « تين » « نين ». ففى هذا المثال جهر الطفل أولا « بالتاء » فأصبحت « دالا » ، ثم جعل مجرى الدال من الأنف فصارت «نونا» . كما قد نسمع بعض أطفالنا يقولون فى « موز » « بوس » ، فقد قلبت الميم هنا إلى نظيرها من أصوات الفم وهو «الباء» . ومثل هذا يمكن أن يقال فى نطق بعض أطفالنا للكلمات الآتية :

دبّان . جمل ، بلكونة

على الأوجه الآتية بالترتيب .

دمّان . جبل . ملكونة

فإذا شب الأطفال فى بيئة منعزلة غير مستقرة ، ولم يجدوا من يصلح لهم مثل هذه الأخطاء ، فقد تصبح الكلمات الأخيرة مستعملة فى لغتهم مقبولة فى جيلهم، تكوّن عنصرا جديداً فى اللغة .

فمن المحتمل أن بعض كلمات اللغة العربية التى اشتملت على «ميم» أو «باء»، قد تعرضت لمثل هذه الظاهرة من أخطاء الأطفال فى قبيلة من القبائل . فلما

جاء جامعو اللغة وسمعوا تلك القبيلة تنطق « بالميم » في بعض الكلمات حيث ينطق غيرها بها « باء » ، ظنوا أن تلك القبيلة تلتزم هذه الصيغة في كل الكلمات . وكذلك العكس حين سمعوا قبيلة تنطق « باء » في بعض الكلمات حيث ينطق غيرها بهذه « الباء » في تلك الكلمات « ميما » ، ظنوا أن من القبائل العربية من يلتزمون قلب « الباء » « ميما » وهكذا .

وبمثل هذا الشرح يمكن أن ننظر إلى جميع الكلمات العربية المشتركة المعاني والأصوات ، والتي لا فرق بينها سوى أن مكان « الميم » في بعضها « باء » في البعض الآخر ، أو أن مكان « الباء » في بعضها « ميم » في البعض الآخر .

خامسا : لهجات تميل إلى الأصوات الرخوة :

أجمع الرواة على نسبة صفة خاصة لقبائل ربيعة سموها أحيانا بالكشكشة ، وحيناً آخر بالكسكسة . ثم اختلفوا في تبيانها ، فقالوا مرة إنها قلب كاف المؤنثة شيناً أو سيناً في حالة الوقف ، وفي موضع آخر قالوا إن هذه « الشين » أو « السين » لا تحل محل كاف المؤنثة ، وإنما تلحق بها في حالة الوقف . وضربوا لهذه الظاهرة أمثلة من نثر وشعر فقالوا :

منشِ = منكِ . عليشِ = عليكِ

ورووا لشاعر هذا البيت مخاطبا به الظبية :

فعيناش عليناها وجيدش جيدها ولكن عظم الساق منش دقيق

وحكى بعضهم أنه سمع أعرابية تقول لجاريتها :

ارجعي وراءش فإن مولاش يناديش

ثم زعم بعض الرواة أن الكاف مطلقاً سواء كانت لمؤنث أم مذكر تقلب سيناً فى لهجة ربيعة فيقولون :

منسَ = منكَ

كما نسب بعض الرواة قلب الكاف مطلقاً إلى شين فى لهجة من لهجات اليمن . وقد سمع بعضهم فى عرفة يقول :

« لبيش اللهم لبيش »

وسموا هذه الظاهرة بشنشنة اليمن . ثم زعم الرواة فى مواضع أخرى أن الكشكشة فى لهجة ربيعة هى أن يقفوا على الكاف المؤنثة بزيادة « شين » فيقولون مثلا : « استجرتُ بكشْ » .

وقال آخرون إن ما ينسب إلى ربيعة هو « الكسكسة » فيقفون على على الكاف مطلقاً بزيادة « سين » !! ونقل الحريرى أن « الكسكسة » لبكر لا لربيعة ، وقصرها على زيادة «السين » فى حالة المؤنثة فقط . وفى موضع آخر نسبت هذه الصفة لتميم أو أسد ... الخ .

ألا ترى معى أننا هنا أمام روايات متناقضة لما يبدو كظاهرة واحدة ؟ !

ونحن حين ننظر إلى هذه الروايات على ضوء القوانين الصوتية نستطيع أن نستخلص أموراً :

١ — أن « الكسكسة » بالسين لا وجود لها فى اللهجات العربية ، وإنما هى « الكشكشة » بالشين ، وقد رويت مصحفة ، وخصوصاً أن كلا من « الكشكشة » و « الكسكسة » قد نسبه معظم الرواة إلى قبيلة واحدة

حى ربيعة . وذلك لأن قلب الكاف إلى مايشبه الشين أقرب لطبيعة الأصوات من قلبها إلى « السين » .

٢ — أن الكشكشة مقيدة بكاف مكسورة لما سنذكره فيما بعد .

٣ — ليست الكشكشة مقيدة بحالة الوقف ، و إنما تصادف أن الكاف فيما روى من أمثلة كانت فى آخر الكلمة أو الجملة .

٤ — لا بد فى الكشكشة أن تحل « الشين » محل الكاف ، ليمكن أن تعد هذه الظاهرة من ظواهر اللهجات . إذ ليس هناك ما يبرر أن تتصل الكاف بصوت آخر فى حالة الوقف ، بل الأقرب إلى القوانين الصوتية وطبيعة اللهجات أن يحل صوت محل آخر ، لما سنذكره من الأسباب .

٥ — أن ما خيل للقدماء أنه « شين » ليس « شينا » خالصة كتلك التى نعهدها .

الآن وقد جردنا هذه الروايات مما قد لحق بها من تشويه ، علينا أن نشرح هذه الظاهرة على حقيقتها فى ضوء ما تقرره طبيعة الأصوات وقوانينها .

وصل العلماء فى مقارنتهم اللغة السنسكريتية باللغتين اليونانية واللاتينية إلى قانون صوتى سموه « قانون الأصوات الحنكية » فى أواخر القرن التاسع عشر . وليس يعنينا هنا شرح هذا القانون شرحاً مسهباً ، و إنما نبغى الإشارة إلى عنصر منه يلقى ضوءاً على ما نحن هنا بصدده . فقد لاحظوا أن أصوات أقصى الحنك « كالكاف » و « الجيم » الخالية من التعطيش ، تميل بمخرجها إلى نظائرها من أصوات وسط الحنك حين يليها صوت لين أمامى (كالكسرة). لأن صوت اللين الأمامى فى مثل هذه الحالة يجتذب إلى الأمام قليلا أصوات

أقصى الحنك فتنقلب إلى نظائرها من أصوات وسط الحنك . ولهذا وجدت بعض الكلمات الهندية — الأوربية التي كانت تشتمل على « الكاف » ، قد تطورت فيها هذه الكاف فيما بعد إلى صوت وسط الحنك الذي ينطق به كما ينطق الصوت الأول في الكلمة الانجليزية « Chicken » أي تْش . وهذا الصوت الذي قد يخيل إلى بعض السامعين أنه مكوّن من صوتين ، ليس في الحقيقة إلا صوتا واحداً كما برهنت التجارب الحديثة في علم الأصوات . ويسمي المحدثون هذا الصوت وأمثاله « Affricative » . ويتكون هذا الصوت الواحد من عنصرين : أولهما ينتمي إلى الأصوات الشديدة وهو ما يشبه التاء ، وثانيهما إلى الأصوات الرخوة وهو ما يشبه الشين .

وهذا الصوت هو نفس ما سمعه القدماء في تلك الظاهرة التي سموها « الكشكشة »، كما أنه هو نفس الصوت الذي لا نزال نسمعه في بعض اللهجات الحديثة بمصر ، مثل لهجة بلدتي شرويدة وزنكلون وما حولها من مديرية الشرقية ، حين ينطقون بمثل هاتين الكلمتين :

كلب ، كِتاب

ويبرر قلب الكاف إلى هذا الصوت أن يليها كسرة « أي صوت لين أمامي » يجتذب مخرجها إلى وسط الحنك . وعلى هذا فلا شك أن أهل شرويدة وزنكلون ينطقون بكلمة « كلب » على أنها مكسورة الكاف .

فالذين رووا هذه الظاهرة بين اللهجات العربية القديمة وقصروها على قلب كاف المؤنثة إلى « شين » كانوا أقرب الجميع إلى الصواب ، لأن الكسرة في كاف المؤنثة هي العامل الأساسي في هذا الانقلاب . أما جعلها في آخر

الـكلمة وقصرها على كاف الخطاب في حالة الوقف ، فليس له ما يبرره من الناحية الصوتية .

فالـكشكشة التي شاعت في بعض اللهجات العربية القديمـة ليست إلا ظاهرة طبيعية شوهدت في كثير من لهجات العالم ، وهي قلب الـكاف التي يليها صوت لين أمامي ، أيا كان موضعها من الـكلمة ، إلى نظيرها من أصوات وسط الحنك . وقد روى هذا في غير كاف المؤنثة في بعض الأشعار القديمة مثل :

علىّ فيهـــا أبتغى أبغيش بيضــاء ترضيني ولا ترضيش
وتطّبي ود بـــني أبيش إذا دنوت جعلت تنئيـــش
وإن نأيت جعلت تدنيش وإن تـكلمت حثت في فيش
حتـــــى تنقى كنقيق الديش

وقد جهـد الرواة يتحايلون بالتأويل والتخريج ليبرروا قوله « حتى تنقى كنقيق الديش » أي كنقيق الديك ، لأن هذه الـكاف ليست للمؤنثة !

وليست شنشنة اليمن إلا كشـكشة ربيعة . ويجب نسبة هذه الظاهرة إلى القبائل اليمنية التي تأثرت بمدن اليمن وحياتها الحضرية ، وإلى تلك القبائل من ربيعة التي تأثرت بمدن العراق وبيئتها ، فإذا ذكرت هذه الظاهرة على أنها لربيعة وجب أن تنسب لتغلب من بين قبائلها ، وإن ذكرت على أنها من صفات اليمن وجب أن ننسبها إلى حمير أو همدان .

سادسا : لهجات تميل إلى الجهر :

برهنت التجارب الحديثة على أن الصوت المجهور أوضح في السمع من نظيره

المهموس . فالمجهور يسمع من مسافة قد يخفى عندها المهموس . وحين يتحدث اثنان بعدت بينهما المسافة يحس السامع منهما بوضوح صوت « كالدال » ، حين يقارن بنظيره المهموس وهو « التاء » ، وتظهر هذه الظاهرة واضحة جلية فى الحديث بالتليفون . ولا شك أن البيئة الصحراوية التى تنتشر فيها الأصوات فى مسافات شاسعة لا يعوقها عائق ، ولا يحول دونها حائل ، تتطلب الميل إلى توضيح الأصوات بطرق عدة من بينها الجهر بالصوت ليصبح أكثر وضوحاً فى أذن السامع : لهذا نلحظ أن لهجات القبائل البدوية تميل إلى جهر بعض الأصوات ، فى حين أن غيرها من قبائل الحضر تبقى على همسها :

(ا) فمثلا روى عن هذيل أنهم يقلبون فى لهجتهم « الحاء » « عيناً » ، فيقولون « اللعم الأعمر أعسن من اللعم الأبيض » ، أى اللحم الأحمر أحسن من اللحم الأبيض ! و بلهجتهم روى أن ابن مسعود قرأ «عتى» فى « حتى» ، فأرسل إليه عمر رضى الله عنه أن القرآن لم ينزل على لغة هذيل فأقرئ الناس بلغة قريش ! ! . ومثل هذه الرواية عن عمر بعيدة الاحتمال لأنها تناقض التيسير فى القراءات القرآنية ، كما تخالف ما رمى إليه الحديث الشريف « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، إلا إذا أراد عمر أن ينهى ابن مسعود عن إرغام القرشيين بغير ما يستطيعون ، وما تميل إليه ألسنتهم ، وذلك بإملاء لهجة من اللهجات عليهم كلهجة هذيل فى هذه القراءة .

وقد سمى القدماء هذه الظاهرة الصوتية فحفحة هذيل . وتعدّ هذه القبيلة من القبائل البدوية التى كانت مساكنها فى الصحراء بعيدة عن البيئة المتحضرة . ولهذا مالت لهجتها إلى الجهر ببعض الأصوات مثل قلب « الحاء » « عيناً » ،

إذ لا فرق بين « الحاء » و « العين » إلا فى أن الأولى صوت مهموس والثانية نظيره المجهور .

(ب) نسب القدماء لتميم وقيس عيلان ظاهرة صوتية سموها « العنعنة » وهى قلب الهمزة المبدوء بها « عيناً » ! وأنشد يعقوب :

فلا تلهك الدنيا عن الدين واعتمل   لآخرة لا بد أن ستصيرها

وقال ذو الرمة :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة   ماء الصبابة من عينيك مسجوم

أراد الشاعر فى البيت الأول « لا بد أنْ » ، وفى البيت الثانى « أأنْ ترسمت » .

وقد جاء فى رواية نسبت إلى الفراء قال :

إن بنى تميم وقيس وأسد ومن جاورهم يجعلون ألف « أن » إذا كانت مفتوحة « عيناً » فيقولون :

أشهد عنَّك رسول الله

فإذا كسروا رجعوا إلى الهمزة !

فنحن نرى من هذه الروايات أنها جميعاً تجمع على قلب الهمزة المبدوء بها إلى « عين » ، ثم قيد هذا فى رواية الفراء بأن تكون الهمزة مفتوحة ! ومثل هذا الاضطراب فى الرواية ليس له من سبب سوى أن استقراء الرواة لأمثلة هذه الظاهرة الصوتية كان ناقصاً ، وأن الأمر فى كل رواية لا يعدو أن يكون حكماً خاصاً مبنياً على مثل خاص سمعه الراوى دون استقراء لباقى الحالات. فاشتراط البدء بالهمزة ، أو أن تكون مفتوحة ليس له ما يبرره من الناحية

الصوتية . وإنما الذى يبدو أن يكون أقرب إلى الاحتمال هو أن هذه القبائل وكلها من البدو كانت تميل إلى الجهر بالأصوات لتجعلها واضحة فى السمع ، أيا كان موضعها من الـكلمة ، وبأية حركة تحركت .

ويحسن إذن أن نعدّ هذه الظاهرة محاولة للجهر بالصوت ؛ لأن الهمزة ليست من الأصوات المجهورة أو المهموسة ، إذ مخرجها المزمار نفسه ، ولا عمل للوترين الصوتيين معها . وقد وصفناها قبلا بأنها من الأصوات الشديدة ، إن لم تـكن أشدها ، وأن أهل البادية يحققونها فى لهجاتهم . فحين يبالغ فى هذا التحقيق ، ويراد أن تـكون أوضح فى السمع ، يستبدل بها أحد الأصوات الحلقية القريبة منها مخرجاً وصفة . وأقرب أصوات الحلق إليها هو « العين » ؛ لأن « العين » صوت مجهور ، وهو أقرب أصوات الحلق المجهورة للهمزة مخرجاً .

ويؤيد ما نذهب إليه أن هذه الظاهرة شائعة فى بعض اللهجات الحديثة التى تتاخم الصحراء . وقلب الهمزة « عيناً » فى هذه اللهجات غير مقيد بالبدء بها ، أو كونها محركة بحركة خاصة .

سابعا : قبائل تميل إلى السرعة فى نطقها :

تميل القبائل البدوية إلى السرعة فى نطقها ، وتلمس أيسر السبل ، فتدغم الأصوات بعضها فى بعض ، وتسقط منها ما يمكن الاستغناء عنه دون إخلال بفهم السامع . ولا شك أن حياة السكينة والهدوء فى البادية لا تتطلب نشاطا كذلك الذى قد تحتاج إليه حياة الحضر ، لما بها من صخب وأمور دنيوية

معقدة تدفع بالمرء إلى حل تلك المشاكل التى كثيرا ما تعترض الحضرى بحكم بيئته ، وخضوعه لنظام من الحكم متعدد القوانين . ولا يستطيع المرء أن يشق طريقه بنجاح فى حياة الحضر إلا بأن يظهر نشاطا فى عمله ، وأن يلقى جهدا فى موارد رزقة . أما البدوى الذى يقنع بالقليل ، ويخلد إلى السكينة والهدوء فحياته مليئة بالتراخى ، وبما يشبه الكسل حتى فى نطقه . فهو يقتصد فى الجهد العضلى وفى التنفس ، ويميل إلى الاختصار فى القول ، لايكاد يبدأ الكلام حتى ينتهى منه . لهذا كله صبغت لهجات البدو بصفات صوتية خاصة تخالف لهجات الحضر . وقد رويت لنا بعض مظاهر تلك الصفات الخاصة بالبدو فى الأمور الآتية :

(ا) تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض :

قد تشترك معظم اللهجات فى مثل هذه الصفة ، ولكن نسبة شيوعها بين البدو أكثر . لهذا روى الادغام بصورة أوسع فى الأوساط البدوية . وقد أشرنا إلى الادغام فى القراءات القرآنية آنفا . وإدغام صوت فى آخر هو فناء الصوت الأول فى الثانى ، بحيث ينطق بالصوتين صوتا واحدا كالثانى . وهذا هو التأثر الرجعى الذى أشرنا إليه من قبل ، وهو الأكثر شيوعا فى اللغة العربية .

وفناء صوت فى آخر هو أقصى ما يمكن أن يعرض لهذا الصوت من تأثر بغيره . على أن هناك درجات للتأثر بين الأصوات لا تصل إلى حد الادغام يمكن أن تلخص فى[1] :

---

(١) راجع تفصيل هذا فى كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١١١

١ — الجهر والهمس :

وذلك حين يلتقي صوتان أحدهما مجهور والآخر مهموس ، فيتأثر أحدهما بالآخر ليصبح الصوتان إما مجهورين أو مهموسين . ويغلب على اللغة العربية أن يتأثر الصوت الأول بالثاني ، فإذا كان الأول مجهورا والثاني مهموسا أصبح الصوتان مهموسين ، وإذا كان الأول مهموسا والثاني مجهورا أصبح الصوتان مجهورين . فإذا روى لنا أن من اللهجات العربية لهجة يقول أصحابها في « اجتمعوا » « اشتمعوا » ، أدركنا أن الأمر هنا لا يعدو أن يكون قلب « الجيم » المعطشة إلى صوت مهموس ، وذلك لتأثرها « بالتاء » بعدها فأصبح الصوتان بهذا مهموسين . وإذا قيل لنا إن من القبائل من يقلبون « الصاد » حين يليها « دال » إلى « زاى » مطبقة كما في « أصدق ، يصدفون » ، علمنا أن المسألة لا تزيد على أن تكون تأثر الصوت الأول المهموس بالثاني المجهور فأصبح الصوتان مجهورين . وهذا هو التأثر الرجعي . أما التأثر التقدمي وهو الذي يتأثر فيه الصوت الثاني بالأول فهو قليل الشيوع بين اللهجات العربية ، رغم أن النحاة قد جعلوه قياسيا في صيغة « افتعل » ، حين تصاغ من بعض الأفعال التي فاؤها صوت مجهور أو مطبق : مثل ازدان واصطبر ... الخ[1] .

ويكفي دليلا على قلة شيوع هذا النوع من التأثر ، أن النحاة قد قصروه على أفعال خاصة ، يعرضون لها دائما في كتبهم ؛ ولا تطرد هذه الظاهرة في كل فعل فاؤه صوت مجهور . ومع هذا فقد روى لنا أن بعضاً من تميم يقولون في

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١١٠

« معْهم » « مَحّم » . ويدل هذا على أن تلك الطائفة من تميم قد أسكنوا أولا « العين » من كلمة « معهم » ، فالتقت العين والهاء ، وبما أن « العين » صوت مجهور « والهاء » صوت مهموس ، تأثرت العين بالهاء فقلبت إلى نظيرها المهموس وهو الحاء ، وهذا تأثر رجعى شاع فى اللهجات العربية ، ثم لم يقف الأمر عند هذا ، بل قد تأثر الصوت الثانى وهو الهاء بالأول وهو الحاء تأثراً كاملا ، وفنيت الهاء فى الحاء وصارت الكلمة «مَحّم » ، وهذا هو التأثر التقدمى النادر فى اللغة العربية . فهذا المثال الذى روى لنا عن بعض من تميم قد مرّ فى دورين : أحدهما شائع بين اللهجات والآخر نادر .

هذا وقد رويت لنا بعض لهجات غير منسوبة لأصحابها ، منها عرفنا أن التأثر التقدمى قد لعب دوراً هزيلا فى اللهجات العربية : فقد قيل لنا إن من القبائل العربية من كانوا يقولون فى « اجتمعوا » « اجدمعوا » وفى « الكعبة » « الجعبة » . ففى المثل الأول اجتمعت « الجيم » وهى مجهورة بالتاء وهى مهموسة ، فتأثر الصوت الثانى بالأول وأصبح الصوتان مجهورين ، وفى المثل الثانى اجتمعت اللام وهى مجهورة بالكاف وهى مهموسة ، فتأثر الثانى بالأول وأصبح الصوتان مجهورين .

وقد نسب الرواة صفة الشذوذ لمثل هذه اللهجات، وأنكروا عليها الفصاحة، لأن الغالب الشائع فى التأثر العربى هو ذلك النوع الذي نسميه بالتأثر الرجعى .

والتأثر ، أيا كان نوعه ، مما يميل إليه البدو لأن فيه اقتصاداً فى الجهد العضلى .

٢ — انتقال مجرى الصوت من الفم إلى الأنف وبالعكس :

فإذا اجتمع صوتان فى كلمة أحدهما مجراه من الأنف كالميم والنون ، والآخر مجراه من الفم كباقى الأصوات ، مالت بعض اللهجات إلى قلب أحدهما بحيث يكون مجرى الصوتين من الأنف فقط أو من الفم فقط .

وقد تحدثنا عن هذا آنفا بما فيه الكفاية[1] .

تلك هى أمثلة لتأثر الأصوات بعضها ببعض ، الذى يمكن أن يعد من خصائص البدو الذين يقتصدون فى القول ويتلمسون أيسر السبل ، لما جلبوا عليه من السكينة والهدوء ، وبعد عن التعمل والتكلف .

(ب) سقوط بعض أصوات الكلمات :

يعد هذا أيضاً من مظاهر الاقتصاد فى الجهد العضلى ، أو إن شئت فسمه كسلا ، ولكنه على كل حال يحقق الغرض بين المتكلم والسامع ، ولا يخل بهدف الكلام وهو الفهم . فقد ينطق البدوى دون تمهل فى نطقه ودون انتظار لنهاية الكلمات ، فتصدر عنه الكلمات مبتورة الآخر ، وهو لا يحفل بهذا لأن كل مايرمى إليه هو إفهام السامع ، وقد وصل إلى غرضه مع اقتصاد فى الجهد وبطريقة أيسر وأسرع . وهذا هو السرّ فيما روى لنا من ترخيم فى النداء ، وفى تلك اللهجة التى سماها القدماء قُطعة طيء . ولا بأس أن نورد هنا طرفا من تلك الروايات :

١ — روى أن قبيلة طيء كانت تميل إلى قطع اللفظ قبل تمامه فيقولون

(١) أنظر صفحة ٨٢

« يا أبا الحكا » و يريدن يا أبا الحكم . وهذه الصفة تشارك الترخيم فى أنها حذف آخر الكلمة ، إلا أن الحذف فى الترخيم وارد على آخر الاسم المنادى ، أما هنا فقد يرد على كل كلة ، اسما كانت أو فعلا ، منادى أو غير منادى . وقد روى القدماء البيت الآتى مثلا لقطعة طيء :

درس المنا بمتالع فابان فتقادمت بالحبس والسربان

(أى المنازل)

كما رووا قول الشاعر :

تضل منه إبلى بالهوجل فى لجة أمسك فلانا عن فل

(أى عن فلان)

(٢) ذكر القدماء فى معايب اللخلخانية فى لهجة الشحر وعمان أنهم قد مالوا إلى حذف بعض الأصوات ، فكانوا يقولون فى « ما شاءالله » « مشالله »!

(٣) روى أن قبيلتى خثعم وزبيد من قبائل اليمن ، كانوا يميلون إلى حذف نون « مِن » الجارة إذا وليها ساكن فيقولون « خرجت مِلْمسجد » !

وقال شاعرهم :

لقد ظفر الزوار أقفية العدا بما جاوز الآمال بالاسر والقتل

(٤) روى أن بعضا من ربيعة كانوا يسقطون نون «اللذين» و« اللتين »

وعليه قول الفرزدق :

أبنى كليب إن عمىّ اللذا قتلا الملوك وفككا الأغلالا

وقول الأخطل :

هما اللتا لو ولدتْ تميم لقيل فخر لهُمو صميم

وقد نسبت هذه الصفة أيضاً إلى قبيلة بلحارث من قبائل اليمن .

(٥) نسب إلى قبيلة بلحارث حذف اللام والألف من « على » الجارة إذا وليها ساكن ، فيقولون (ركبت علْفرس) أى على الفرس .

(٦) روى أن بعضا من ربيعة كانوا يقفون على المنصوب المنون بالسكون ، فبدل أن يقولوا « رأيت محمدا » يقولون « رأيت محمدْ » .

(٧) روى أن قبيلة طيء كانت تؤثر الوقف على تاء جمع المؤنث السالم بقلبها « هاء » . وقد سمع بعضهم يقول : « دفن البناه من المكرماه » أى « البنات من المكرمات » !!

وليست هذه الظاهرة فى الحقيقة قلب صوت إلى آخر ، بل هى حذف الآخِر من الكلمة . وما ظنه القدماء « هاء » متطرفة هو فى الواقع امتداد فى التنفس حين الوقوف على صوت اللين الطويل ، أو كما يسمى عند القدماء ألف المد . وهى نفس الظاهرة التى شاعت فى الأسماء المؤنثة المفردة التى تنتهى بما يسمى بالتاء المربوطة ، فليس يوقف عليها بالهاء كما ظن النحاة ، بل يحذف آخرها ، ويمتد التنفس بما قبلها من صوت لين قصير (الفتحة) ، فيخيل للسامع أنها تنتهى بالهاء .

ولقد تطورت تاء التأنيث فى اللغات السامية على مراحل ليس هنا مجال تفصيلها ، وإنما يمكن الإشارة إليها فيما يلى .

(ا) — الأصل فى علامة التأنيث هو التاء المتطرفة ، وقد ظلت على حالها فى الفعل الماضى وجمع الإناث فى اللغة العربية .

(ب) — تطورت فى الأسماء المؤنثة المفردة إلى خال وسطى وهى : النطق

بها تاء فى حالة الوصل ، وحذفها فى حالة الوقف .

(حـ) الطور الثالث لهذه العلامة هو حذفها مطلقا وصلا ووقفا فى كل اسم مفرد مؤنث . وقد شاع هذا الطور الأخير فى معظم اللغات السامية كالعبرية وفى اللهجات العربية الحديثة . فحين نسمع كلمة مثل « الشجرة » فى لهجات الكلام الآن يخيل إلينا أن التاء المربوطة قد قلبت «هاء». والحقيقة أنها حذفت من النطق ، وامتد التنفس مع صوت اللين قبلها فسمع كالهاء .

ومما يؤيد ما نذهب إليه ، الإمالة فى هذه الأسماء ، فقد رويت فى قراءة الكسائى ، كما شاعت فى كثير من اللهجات العربية الحديثة . وهذه الإمالة لا علاقة لها بتاء التأنيث كما زعم بعض القراء ، بل هى مجرد إمالة الفتحة قبلها . فلا معنى إذن لخلاف القراء فى هل تاء التأنيث ممالة مع ما قبلها ، أو أن الممال هو ما قبلها فقط وأنها نفسها ليست ممالة !! وجمهور القراء على كل حال يرون أن الممال هو الحركة قبلها .

وعلى هذا فإذا روى لنا أن من القبائل من كانوا يقفون على هذه التاء المربوطة «بالتاء» ، مثل أولئك الذين سمع عنهم من قال «يا أهل سورة البقرتْ» فأجابه آخر « ما أحفظ منها آيتْ » ، فليس هذا إلا احتفاظا بالأصل فى ظاهرة التأنيث .

وقد احتفظت بعض اللهجات العربية الحديثة بهذا الأصل . وامتداد التنفس الذى يخيل للسامع أنه هاء متطرفة هو فى الحقيقة ما سماه القدماء بهاء السكت . وإننا حين نستعرض أحكام هاء السكت كما شرحها النحاة ، نراها تنحصر فى الوقف على الكلمة التى تنتهى بصوت لين طويل كما فى مثل «البناه»

والمكرماه » ، أو صوت لين قصير كما فى الوقف على المفردة المؤنثة بعد حذف تاء التأنيث منها، وكما فى الوقف على الفعل المجزوم بحذف حرف العلة ، وما الاستفهامية. والغالب الشائع فى اللغة العربية أن تلحق هاء السكت أصوات اللين القصيرة (أى الحركات) بشرط أن تكون جزاء من بنية الكلمة . وعلى هذا لا تلحق هاء السكت حركة الإعراب ، لأنها لا تلازم صورة واحدة كحركات البناء .

ثامنا : قبائل تميل إلى الأناة وتحقيق الأصوات :

وتلك هى التى تأثرت بالبيئة الحضرية التى تطلب الدقة فى معظم مظاهرها الاجتماعية ومن بينها اللغة . فالحضرى يعنى بتخير لفظه ، وحسن أدائه ، ويعمد إلى نطق كل صوت دون تداخل بين الأصوات . فالمجهور يظل مجهورا ، والمهموس يحافظ على همسه ، لأن من مظاهر التحضر اللباقة فى القول وحسن النطق ومراعاة قواعده ، وذلك هو ما شاع فى البيئة الحجازية على العموم ، وفى مكة بصفة خاصة .

فلا غرابة أن وصفت قريش بالفصاحة ، ونسب إليها الانسجام فى النطق وحسنه . ولا غرابة أيضاً أن اتخذت اللغة العربية التى نظم بها الشعر ، ونزل بها القرآن الكريم معظم صفاتها الصوتية من البيئة الحجازية ، أو بعبارة أدق من لهجة قريش ، فتكونت منها اللغة النموذجية التى اعتزت بها كل القبائل ولا سيما الخاصة منهم ، وحافظوا على كل أثر أدبى كتب بهذه اللغة .

وليس معنى هذا أن الصفات الصوتية لهذه اللغة الأدبية هى نفسها الصفات

الصوتية للهجة قريش ، وإنما تشترك معها فقط فى الكثير منها .

وتختلف اللغة الأدبية عن لهجة قريش فى القليل من الصفات الصوتية ، كتحقيق الهمزة الذى لم يكن شائعا بين الحجازيين ولكنه يعدّ أصلا فى اللغة النموذجية التى رويت لنا بها أشهر القراءات ، وقرأ بها أشهر القراء ، وتلقاها الرواة فى عصور التدوين معتزين بآثارها فخورين بخصائصها ، فوضعوا لها القواعد الدقيقة ، وجعلوها الأساس الذى يبنى عليه ويقاس عليه ، وعدّوا ما عداها شاذا . ولكنهم لسوء الحظ قد خلطوا فيما بعد بين هذه اللغة وماسمعوه من قبائل بدوية تعودت أن تفد إلى مدن العراق ، وتعوّد الرواة أن يرحلوا إليهم . وقد كان الرواة فى الأخذ عن تلك القبائل متأثرين بفكرة خاطئة وهى أن كل ما كان يروى عن البادية حتى أواخر القرن الرابع الهجرى يحتج به ويرجع إليه .

وفى هذا خلط بين اللغة النموذجية التى لها صفاتها المنسجمة وألفاظها المتخيرة وقواعدها المضبوطة المطردة ، وبين لهجات متعددة الصفات متباينة النواحى . وقد أدى هذا إلى ذلك الاضطراب الذى نلحظه فى كثير من كتب النحو ، وتعدد الآراء فى المسألة الواحدة ، ولو قد رجعنا إلى الأسلوب القرآنى والشعر الجاهلى الصحيح النسبة ، وإلى الآثار الأدبية الصحيحة فى صدر الإسلام تلك التى رويت عن خاصة العرب ، لو قد رجعنا إلى مثل هذا ثم استنبطنا منه قواعدنا وأصول لغتنا ، لكفينا عناء ومشقة فى دراسة تلك الآراء المتشعبة المتناقضة المضطربة التى ملئت بها كتب النحاة .

— ٣ —

(لهجات متناثرة)

رويت لنا بعض صفات صوتية للهجات متناثرة فى شبه الجزيرة . وبعض هذه اللهجات منسوبة إلى قبائل معينة ، والبعض الآخر لا نعرف لها صاحبا ، بل قد رواها الرواة مجهولة النسب ، مبتورة حينا ومشوهة حينا آخر . فلا عجب أن قد اعترى تلك اللهجات كثير من التحريف أو التصحيف . وسنعرض هنا طرفا من هذه اللهجات ، دون أن نحاول تحقيق نسبتها إلى قبائلها ، وإنما سنكتفى بشرحها وتحليلها على ضوء ما يقرره علم الأصوات اللغوية :

أولا : نسب الرواة لقبيلة حمير أنها كانت تقلب اللام فى أداة التعريف « ميما » ، ورووا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يخاطب بعض الحميريين « ليس من امبر امصيام فى امسفر » ، وسموا هذا طمطمانية حمير .

ونسب الرواة أيضاً إلى قبائل سعد بن بكر وهذيل والأزد والأنصار أنهم كانوا يقلبون « العين » فى الفعل « أعطى » إلى « نون » فيقولون « أنطى » ، وقد قرئ « إنا أنطيناك الكوثر » . وقد سمى الرواة هذه الظاهرة بالاستنطاء .

وفى كل من هاتين الظاهرتين قد قلب صوت من أصوات الفم إلى آخر من أصوات الأنف . وقد تقدم القول إن قلب صوت من أصوات الفم إلى آخر من أصوات الأنف ، أو العكس ، أمر معترف به فى معظم اللهجات ، وإنه فى الغالب نتيجة أخطاء الأجيال الناشئة ، حين يحاولون التوفيق بين مجرى

الأصوات ، فيجعلونها إما من الفم أو الأنف فقط .

ولكننا حين نستعرض الأمثلة التى رويت لنا بصدد هاتين الظاهرتين لا نكاد نعثر على مبرر صوتى قوى ، كذلك الذى لاحظناه من قبل فى مثل نطق أطفالنا لكلمتى :

« دبّان » و « جمل » حين يقلبونهما إلى « دمّان » و « جبل » .
فكيف تأتى إذن أن قلبت لام التعريف إلى « ميم » وهما لا يختلفان فى المجرى فحسب ، بل وفى المخرج أيضاً ؟؟ وكذلك كيف تأتى أن قلبت العين إلى نون فى « أعطى » مع اختلافهما فى المجرى والمخرج أيضاً ؟؟

لهذا كله نرجح أن الرواية مبتورة أو ناقصة ، ولا يستطاع الحكم على مثل هاتين الظاهرتين من مثل أو مثلين رددهما الرواة .

وليس هناك ما يمكن أن يبرر هاتين الظاهرتين سوى اشتراك « اللام والميم والنون والعين » فى الصفة . فكل من هذه الأصوات صوت مجهور متوسط لا هو بالشديد ولا بالرخو . على أنه إذا أمكن أن نتلمس أسباباً أخرى فى طمطمانية حمير ، فمن العسير أن نبرر استنطاء هذيل فى فعل واحد من بين أفعال اللغة . وليس فى مجاورة العين للطاء أمر غير عادى ، فقد رويت هذه المجاورة فى كثير من الأمثلة ومع هذا فلم ينسب لها استنطاء . فلم اختصت « أعطى » بهذه الصفة ، فى حين أنها لم تنسب لأية كلمة اشتقت من المواد الآتية :

« عطش ، عطس ، عطل ، عطر ، عطن ، عطف » ؟!
ويظهر أن الأمر لم يكن مقصوراً على الفعل « أعطى » ، بل يتعلق

ينطق كل « عين » سواء وليها « طاء » أو صوت آخر . فلعل من القبائل من كانوا ينطقون بهذا الصوت بصفة خاصة نطقا أنفميا ، وذلك بأن يجعلوا مجرى النفس معه من الفم والأنف معاً ، فتسمع العين ممتزجة بصوت النون وليست في الحقيقة نونا ، بل هي « عين » أنفمية[1]. وعلى هذا فيمكن أن يقال إن الرواة قد سمعوا هذه الصفة ممثلة في الفعل « أعطى » فأشكلت عليهم ، ولم يصفوها لنا على حقيقتها .

أما في حالة طمطمانية حمير فإن أداة التعريف في اللغات السامية قد رويت حينا « باللام » كما في العربية ، وحينا آخر « بالنون » كما في العبريه . فقد أجمع المستشرقون على أن أداة التعريف العبرية كانت في الأصل « هَنْ » . واستدلوا بتشديد أوائل الأسماء المعرفة في اللغة العبرية على إدغام النون في « هَنْ »، في الحروف الأولى من الأسماء، بشرط ألا تكون حروف حلق . فليس بغريب بعد هذا أن تروى أداة التعريف في بعض اللهجات السامية « بالميم » كما في طمطمانية حمير ، لأن العلاقة الصوتية بين « اللام والنون والميم » واضحة جلية : فهي أكثر الأصوات شيوعا في اللغات السامية ، كما أنها من الأصوات المتوسطة الشبيهة بأصوات اللين . ولهذا كانت من أسبق الأصوات في نطق الطفل . فهذه الأصوات الثلاثة أصوات قديمة سبقت في نطق الإنسان الأول غيرها من الأصوات ، وقد استغلت في ظواهر لغوية متعددة ، فهي أحيانا تعبر عن النفي وأحيانا تفيد التعريف . فهي مجموعة متميزة بين أصوات اللغة يحل بعضها مكان بعض ، وقد تنقلب جميعها إلى أصوات لين طويلة .

---

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٦٣

ثانيا : صوت اللين المركب الذى يسميه المحدثون « Diphthong » قد مرّ فى اللغة العربية فى أدوار ثلاثة : « ai » أو « au » ، ثم تطور الأول إلى :e والثانى إلى : o وأخيراً صار الأثنان :a .

ففى الأفعال المعتلة الآتية :

بان . كان . رمى . سما

بدأت أولا على الصور الآتية بالترتيب :

بَيْنَ . كَوْنَ . رَمَيْ . سَمَوْ

Samau Ramai Kauna Baina

ثم صارت :

بَيَنَ . قَوَلَ . رمَيِ . سَمُوَ

Samo : Rame : Ko : na Be : na

ثم صارت جميعها بألف لين خالصة كما نعهدها الآن . على أن القبائل قد اختلفت فى هذا ، فمنها قبائل احتفظت بالطور الأول ، وأخرى وصلت إلى الدور الثانى ووقفت عنده . أما الطور الأخير فهو أحدثها وأفصحها لكثرة شيوعه بين القبائل المشهورة ، ولأنه الصفة التى شاعت فى اللغة الأدبية النموذجية ، وهذا هو السر فى الروايات الآتية :

روى أن قبائل بلحارث وخثعم وكنانة تلزم المثنى الألف ، وعلى هذه اللهجة قول القائل :

« قد بلغا فى المجد غايتاها »

وروى أيضا أنهم كانوا يقلبون كل ياء بعد فتحة ألفا فيقولون فى « جئت

إليك » « جئت إلاكَ » . وقد قال الشاعر « طاروا علاهن فطر علاها » أى « عليهن وعليها » .

وهذه اللهجة هى الدور الثالث لصوت اللين المركب ، ولهذا تعد من أحدث مظاهر اللهجات العربية . إذ يظهر أن الأصل فى المثنى التزام الياء ، ثم تطور هذا إلى الإمالة التى لا تزال شائعة فى معظم اللهجات العربية الحديثة ، وأخيراً صار لمثنى بالألف[1] .

وقد اتخذت اللغة النموذجية أحوال المثنى من لهجات مختلفة ، ثم خصص النحاة حالة الياء بالنصب والجر ، وحالة الألف بالرفع .

ولقد قررنا قبلا أن اللغة النموذجية قد اتخذت بعض صفاتها من لهجات متعددة . لهذا نرجح أن أحكام المثنى كما رويت لنا فى اللغة الأدبية النموذجية ترجع فى الأصل إلى أكثر من لهجة واحدة .

ومثل هذا يمكن أن يقال فى لهجة « فزارة » و بعض « قيس » حين يقفون على الألف المتطرفة بالياء ، فيقولون فى « الهدى » « الهُدَىْ » . فلهجة فزارة هى الدور الأول ، أما الدور الثانى فهو الإمالة ، وأخير أصبحت الكلمة كما نعهدها الآن بألف اللين الخالصة ، وهو أفصح الجميع وأكثرها شيوعا بين القبائل .

وعلى هذا إذا قيل لنا إن قبيلة هذيل كانت تقول « عَصَىّ » بدل « عصاى » ، علمنا أن الأمر لا يعدو أن قبيلة هذيل التزمت الدور الأول لصوت اللين المركب ولم يتطور فيها .

(١) انظر الخصائص الجزء الأول صفحة ٤١٣

وبهذا يمكن أن نفسر قول شاعرهم :

سبقوا هوىّ وأعنقوا لهواهمو فتخرموا ولكل جنب مصرع

ويظهر أن الوقف على أصوات اللين المتطرفة ، كان عسيراً على اللسان العربى ، قليل الشيوع فى معظم اللهجات العربية ، فقد روى أن بعضاً من تميم كانوا يقفون على مثل كلمة « المدى » قائلين « المدَوْ » ، وبعض من قبيلة طىء كانوا يقولون « الهدَأْ » بالهمزة . فإذا أضيف إلى هذا كيف كان معظم القبائل يقفون على ما آخره صوت لين بهاء السكت ، أدركنا بسهولة كيف فرت معظم اللهجات العربية من الوقف على أصوات اللين طويلها وقصيرها .

ثالثا : اختلاف موضع النبر :

تخضع اللغات إلى قواعد خاصة فى موضع النبر من الكلمة أو الجملة . والنبر هو الضغط على مقطع من المقاطع بحيث يتميز عن غيره من مقاطع الكلمة ويزداد وضوحه فى السمع[1] .

ولم يعن المتقدمون بالبحث فى مواضع النبر العربى ، وإنما هى إشارات رووها فى ثنايا كتبهم نستطيع منها الحكم على أثر النبر فيما يعرض لبعض اللهجات من ظواهر صوتية . وقد اختلفت مواضع النبر فى اللهجات العربية الحديثة اختلافا يجعلنا نرجح أن اللهجات القديمة قد اختلفت أيضاً فى هذا . وحين نعتمد على قراءة المجيدين فى العصر الحاضر ، ونحاول استنباط مواضع النبر فى قراءتهم ، نستطيع أن نتبينه فى واحد من مواضع ثلاثة :

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٩٧

إما أن يكون على المقطع الأخير بشروط خاصة ، أو على المقطع الذى قبل الأخير بشروط معينة أيضاً ، فإذا لم تتوفر شروط هذا أو ذاك كان النبر على المقطع الثالث حين نعدّ المقاطع من نهاية الكلمة .

ومثال الموضع الأول « المستقر » حين نقف على قوله تعالى « إلى ربك يومئذ المستقر » ، « نستعين » حين نقف عليها فى قوله تعالى « إياك نعبد و إياك نستعين » .

ومثال الموضع الثانى .

يكتبُ بحرٌ أصغرُ

ففى هذه الأمثلة نلحظ أن النبر يقع على المقطع الذى قبل الأخير وهو على الترتيب .

تُ ، بَحْ ، غَ

ومثل الموضع الثالث وهو النادر الشيوع فى اللغة العربية كما نسمعها من أفواه القراء فى عصرنا الحاضر :

ضربَ ، اشتهرَ ، اجتمعوا

ففى هذه الأمثلة نلحظ أن النبر يقع على المقطع الثالث من الخلف وهو على الترتيب .

ضَ ، تُ ، تَ

والذى نلحظه بوجه عام هو أن اللهجات العربية تميل فى حالة الوقف إلى نقل النبر إلى المقطع الذى قبله ، فحين نقف على الأمثلة الآتية :

يكتبُ ، خالدٌ ، مستفهمٌ

نلحظ أن النبر ينتقل من المقاطع الآتية :

تُ ، ـا ، ـه

إلى المقاطع التى قبلها وهى :

يكْ ، خَا ، تَفْـ

وذلك لأن من يريد الوقف لا ينتظر بنطقه حتى ينتهى من جميع المقاطع، بل يبتر غالبا المقطع الأخير أو جزءا منه ، من آخر كلمة فى جملته . وقد ترتب على هذا تلك الظاهرة التى سماها القدماء الوقف بالسكون . ففى الكلمات المنونة يحذف تنوينها ، والكلمات المحركة الآخر سواء كانت تلك الحركة حركة إعراب أو بناء ، تحذف حركتها . فالقبائل بصفة عامة تقف على الكلمات الآتية .

خالدٌ ، معلّمٌ ، ينزلُ ، أمسِ

هكذا :

خالدْ ، معلمْ ، ينزلْ ، أمسْ

ونلحظ في حالة الوقف انتقال موضع النبر إلى المقطع الذى قبله فى معظم الحالات.

على أن معظم القبائل قد اختصت المنون المنصوب بحكم خاص ، وهو الوقف عليه بالألف ، إلا قبيلة ربيعة التى اشتهر عنها الوقف عليه بالسكون أيضاً .

وقد روى لنا أن بعض القبائل قد التزموا فى لهجاتهم حكما خاصاً فى حالة الوقف مثل :

(١) — روى أن قبيلة الأزد من القبائل اليمنية كانت تقف على الكلمات المنونة بحركة من جنس حركة آخر الكلمة فيقولون : جاء خالدو ، رأيت خالدا ، مررت بخالدى .

وعلى هذا فلاشك أنهم كانوا يبقون النبر فى موضعه فى حالة الوقف ، وهو فى كل من الأمثلة الثلاثة المتقدمة « ا » فى خالد .

(ب) — كما روى أن قبيلة سعد بن بكر كانت تبقى النبر فى موضعه أيضا فى حالة الوقف ، ولكنهم مع هذا كانوا يحذفون التنوين . ولم يكن من الممكن حذف التنوين وابقاء النبر فى موضعه إلا بتشديد الحرف الأخير من الكلمة ، وإلا خالف هذا ماعرف عن نسج المقطع الأخير من الكلمات العربية حين يكون منبوراً . فشرط المقطع الأخير حين يقع عليه النبر أن يكون أحد نوعين :

صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن .

أو :

صوت ساكن + صوت لين قصير + صوتان ساكنان

ففى حالة الوقف على مثل « خالد » بالسكون ، مع بقاء النبر فى موضعه ، يجب أن تصبح الكلمة على أحد وجهين : إما (خالدّ) أو (خاليد) .

وقد اتخذت لهجة سعد بن بكر الوجه الأول وهو « خالدّ » فى حالة الوقف ، وذلك حين يكون المقطع الذى قبل الأخير متحركا ، أما إذا كان ساكنا فالنبر لا يتغير موضعه فى حالة الوقف في أية لهجة من اللهجات . ولهذا روى أن لهجة سعد بن بكر تقول (هـذا بكْرْ) فى حالة الوقف ، كما هو الشائع فى اللهجات الأخرى .

هذا وقد روى أن قبيلة سعد بن بكر لايلتزمون لهجتهم هذه فى حالة الوقف على ما آخره همزة مثل « رشأ » ، لأن تضعيف الهمزة ثقيل على السمع ويحتاج إلى جهد عضلى كبير . وقد سمى القدماء هذه الظاهرة الوقف بالتضعيف ، ولم

يرو عن أحد من القرّاء ، إلا ما نسب لعاصم فى قوله تعالى « وكل صغير وكبير مستطرّ » ، وما نسب لأبى عمرو « وتواصوا بالصبرّ » ، كما قرأ سلاّم « والعصرّ » .

ويظهر أن هذه القبيلة قد التزمت فى معظم الأحيان نبر المقطع الأخير من الكلمة فى حالة الوقف عليها ، مما أدى إلى تضعيف الحرف الأخير .

وهناك قبائل أخرى يضغطون على المقطع الأخير من الكلمة فى حالة الوقف عليها ، وأولئك هم الذين يقفون بما سماه النحاة الوقف بالنقل . ففى مثل الوقف على بكر وعمرو ، ينقلون حركة الراء إلى الساكن قبلها ويقولون « هذا بكُرْ » ومررت ببكِرْ الخ ... وقد ترتب على التزام نبر المقطع الأخير فى لهجتهم شيئان : أولهما ما سمى بالنقل وثانيهما تضعيف الحرف الأخير . فأولئك الذين يقفون بالنقل يضغطون فى نفس الوقت الحرف الأخير من الكلمة . وعلى هذا فالنطق الصحيح لهذه القبائل هو أنهم كانوا يقولون « هذا بكُرّ » ، ولم يفطن النحاة لهذه الصفة وظنوها الوقف بالنقل فقط .

ومما يؤيد ما نذهب إليه تلك الرواية التى رويت عن أبى عمرو فى وقفه على قوله تعالى « وتواصوا بالصبِرّ » . وقد ذكرها النحاة مرة فى الوقف بالتضعيف ، ومرة أخرى حين أشاروا إلى الوقف بالنقل ، مما يدل على أن كل وقف بالنقل يستلزم التضعيف ، ولكن ليس كل وقف بالتضعيف يتضمن نقلا ، إلا فى لهجة « لخم » وبعض من « طىء » أولئك الذين يلتزمون النقل ولو كان الحرف الذى قبل الأخير متحركا . وقد مثل النحاة للهجة لخم وطىء أولا بقول الشاعر :

من يأتمر للخير فيما قصدُهْ ... تحمد مساعيه ويعلم رشدُهْ

وثانيا بقول القائل :

« والكرامة ذات أكرمكم الله بَهْ » .

ويجب أن تشدد الهاء فى كل من « قصدةّ ، رشدةّ ، بهّ » لأنه لا نقل بغير تضعيف .

(ح) — اختلفت القبائل العربية فى أحكام الفعل المضعف ، أى الذى فيه العين واللام من نوع واحد ، مثل « ردّ ، عدّ » . وليس لهذا الاختلاف من سر ، سوى اختلاف موضع النبر بين هذه القبائل .

وقد نظر النحاة إلى مثل هذا الفعل من وجهين : أولا حين يكون مجزوما ، وثانيا حين يتصل بضمير رفع :

أولا : رووا لنا أن لهجة الحجازيين تلتزم فك الإدغام فى حالة الجزم فيقولون « لم يردد » ، فى حين أن بنى تميم يبقون الادغام ويقولون « لم يردّ » . وعدّ النحاة كلا من الوجهين جائزاً صحيحا .

أما السر فى التزام الحجازيين فك الادغام فهو أنه يترتب على الجزم عادة نقل النبر من موضعه إلى المقطع الذى قبله ، لأن الجزم يختصر أواخر الكلمات . ففى قولنا « يكتبُ » نلحظ أن النبر على المقطع « تُ » ، ولكن إذ جزم الفعل كما فى مثل « لم يكتبْ » ، انتقل النبر إلى المقطع « يكْ » . وعلى هذا كان من الواجب فى حالة جزم الفعل « يردّ » أن ينتقل النبر من المقطع « رُدْ » إلى المقطع « يَ » ، لتصبح الكلمة لم « يَرُدْ » ، ولكن التباس هذا الوضع بوضع الفعل المعتل العين ، والحرص على إظهار تضعيف الفعل ، جعل العرب من الحجازيين يفكون الادغام ليجمعوا بين أمرين : نقل النبر إلى الوراء بسبب الجزم ، وإظهار تضعيف الفعل .

وهكذا جاء الوضع « لم يردُدْ » . ولهذا عاد الحجازيون إلى الإدغام حين بقى النبر فى موضعه ، مثل « لم يردّوا » .

أما بنو تميم فلم ينقل النبر فى لهجتهم بسبب الجزم وبهذا بقى الادغام . فكانوا يقولون فى حالة الوقف « لم يَرُدّ » ، أما فى الوصل فكانوا يحركون الدال الثانية بحركة لالتقاء الساكنين ، سواء كانت تلك الحركة فتحة أوضمة أو كسرة على اختلاف بين النحاة . وربما كان هذا هو الموضع الوحيد الذى يتخلص فيه من التقاء الساكنين بتحريك الثانى منهما.

نخلص من كل هذا إلى أن فك الإدغام عند الحجازيين فى مثل « لم يردد » ليس له سر ، سوى نقل النبر من موضعه ، فلما جئ بالأمر من هذا الفعل كان من المعقول أن يأتى على هذا الوضع « اردُدْ » ، فى حين أن الأمر عند بنى تميم هو « رُدّ » .

أما تلك اللهجة التى رويت عن « عبد القيس » واختص بروايتها الكسائى فهى أنهم كانوا يقولون فى حالة فعل الأمر « أُرُدّ » ، « أُغُضّ » . ومن المحتمل هنا أن يكون هذا الوضع من أنواع القياس الخاطىء ، رغبة فى اطراد الصيغ والأوضاع فى اللهجة الواحدة . وبهذا قد قاس بنو عبد القيس الفعل الأمر هنا ، على الأمر من الفعل الثلاثى الصحيح الذى يلتزم فيه البدء بهمزة الوصل . ومثل هذا القياس الخاطىء كمثله فى قياس أطفالنا تأنيث الوصف «أحمر» بزيادة علامة التأنيث الشائعة وهى التاء فيقولون « أحمرة » . وقد ينمو مثل هذا القياس الخاطىء فى بعض البيئات المنعزلة ويصبح لهجة من اللهجات .

ثانيا : أما فى حالة اتصال الفعل المضعف بضمير الرفع فقد أجمع النحاة على

وجوب فك الإدغام فى الـكثرة الغالبة من اللهجات العربية . وربما لم يكن هذا إلا عن طريق قياس أمثال « ردّ » على الأفعال الصحيحة ، وبهذا يقال « رددت » كما يقال « ضربت » . وإذا أمكن قبول قول النحاة إن لام الفعل الصحيح قد سكنت حين اتصاله بضمير الرفع لـكراهة توالى أربعة متحركات فيما هو كالـكلمة الواحدة ، فليس من المقبول أن يلتزم هذا فى مثل «ردّ» الذى لا يترتب على اتصاله بضمير الرفع أن يتوالى أربعة متحركات .

فالسر إذن فى فك الإدغام ، هو القياس على الفعل الصحيح لا أكثر ولا أقل . وعلى هذا فما روى لنا من أن ناسا من بكر بن وائل كانوا يقولون «ردّتُ» ، قد جاء على الأصل . وقد ترتب على اتصال الضمير بالفعل فى لهجة بكر بن وائل ، انتقال النبر إلى الأمام ، من المقطع «رَدْ» إلى المقطع «دَ» . وانتقال النبر إلى مثل هذا المقطع قد يطيل صوت اللين فيه فيصبح « دا » . ولهذا جاءت بعض الروايات بأن لهجة قيس عيلان تزيد ألفا بعد المدغم قبل الضمير ، فيقال « مدّاتُ » . وإذا نطق مثل هذا الوضع الأخير بالإمالة ، نتج ذلك الوضع الذى التزمته معظم اللهجات العربية الحديثة والذى نلحظه فى لغة كلامنا .

هذه إشارات منها نرجح أن القبائل العربية لم تلتزم فى لهجاتها قانونا واحدا لمواضع النبر من الـكلمات . ولعل بحوث المستقبل تكفل لنا الـكشف عن صفات أخرى للنبر فى اللهجات العربية القديمة . وليس اختلاف مواضع النبر فيها بالأمر الغريب ، بل هو طبيعى . وإننا لنشهد الآن آثاره فى اللهجات الحديثة . فموضع النبر فى لهجة الصعيد يختلف عن موضعه فى لهجة القاهريين وسكان الوجه البحرى ، لا فى لهجات الـكلام فحسب ، بل حتى فى النطق

بالعربية الفصيحة أيضا . ففى مثل الكلمات :

رقبة ، عملهم ، ربنا

يضغط أهل الصعيد على المقاطع الآتية :

قَ ، مَ ، رَبْ

فى حين أن أهل القاهرة والوجه البحرى يضغطون على المقاطع :

رَ ، عَ ، بَ

— ٤ —

أشهر القبائل فى اللهجات العربية

حين نستعرض أسماء القبائل التى ذكرت فى رواية اللهجات ، نراها تشمل طائفة كبيرة من القبائل العربية المشهورة فى التاريخ والأدب . على أن روايات اللهجات قد خلت فى كثير من الأحيان من ذكر أسماء قبائل معينة إليها تنسب اللهجة . وقد تفاوتت القبائل فى نسبة اللهجات إليها ، فمنها قبيلة نسبت إليها صفة واحدة وأخرى نسبت إليها صفات عدة . وربما كان أشهر القبائل فى روايات اللهجات قبائل ثلاث هى : تميم وهذيل وطىء ، وكلها من القبائل البذوية التى عاشت فى الصحراء ، ونسب الرواة لها الفصاحة وإجادة القول ، واحتجوا بأقوالهم وأخذوا عنهم فى رواياتهم عصر تدوين اللغة . ولكن الغريب أن نلحظ أن هذه القبائل الثلاثة ، كانت من أقل القبائل نصيبا فى الشعراء الجاهليين ، إذ لم ينسب إلى واحدة منها شاعر من شعراء الطبقة الأولى ،

وإنما نسب إليها شعراء مقلون ، روى عنهم القليل من الشعر الجاهلى . فقد نسب لتميم : « أوس بن حجر ، والأسود بن يعفر ، والبراق بن روحان ، وسلامة ابن جندل ، وعلقمة بن عبيدة ، وعمرو بن الأهتم » .

ونسب لقبيلة هذيل من الشعراء الجاهليين : « المنتحل بن عويمر ، وعامر ابن حليس ، وخويلد بن خالد ، وأبو ذؤيب الهذلى » .

ونسب لقبيلة طىء : « حاتم الطائى ، وإياس بن قبيصة ، وأبو زبيد الطائى ، والطرماح بن حكيم » .

والروايات الأدبية التى رويت لنا عن العرب قبل الإسلام وفى صدر الإسلام ، تمثل لنا كما أشرنا آنفا لهجة واحدة منسجمة الصفات ، قد ترفعت عن معظم صفات اللهجات التى رويت لنا ، فقد خلت من العنعنة والكشكشة والعجعجة ونحو ذلك ، مما نفر منه خاصة العرب قبل الإسلام وبعده . وقد اتخذت تلك اللغة الأدبية معظم صفاتها من لهجة قريش مع ما استحسنه خاصة العرب من صفات اللهجات الأخرى . فهى إذن مزيج من عدة صفات نسبت إلى قبائل عدة ، ولكنه مزيج منسجم القواعد والأصول ، نراه فى أسلوب القرآن الكريم ، كما نراه فى الآثار الأدبية الأخرى من شعر ونثر صحت روايته وتحققت . وكما يسرت القراءات على العامة من العرب نطق القرآن الكريم بما تستطيعه ألسنتهم وبما يوافق لهجاتهم ، كان من الطبيعى أيضا أن ينطقوا الآثار الأدبية نطقا يوافق ألسنتهم وما جبلوا عليه من لهجات ، لأن تلك الآثار الأدبية وإن كتبت بلغة الخاصة ، شاع تداولها بين العامة ، وتغنوا بها واعتزوا بما اشتملت عليه من جمال الأسلوب والمعانى . فلم تكن فى تداولها وقفا على الخاصة من العرب ،

بل كان يتلقفها العامة أيضا بشغف كبير ، ويرددونها فى أغانيهم ومجالسهم ، وإن لم يفهموا الكثير منها .

وإذا تصورنا تلك القبائل المتعددة اللهجات ، تردد الآثار الأدبية فى أغانيها ومسامراتها ، أدركنا بسهولة أن لا بد من وقوع بعض الاختلاف فى النطق . فلما جاء عصر تدوين اللغة وأخذ الرواة عن قبائل عدة ، جاءتهم أشعار الشاعر الواحد بروايات عدة فى بعض النواحى . وربما كان هذا أحد العوامل التى اختلفت من أجلها روايات الآثار الأدبية من الناحية الصوتية . ولنضرب هنا بعض الأمثلة التى توضح ما نرمي إليه .

تصور معى أن رجلا من القبائل التى تميل إلى الإدغام وتأثر الأصوات بعضها ببعض ، ينشد قول امرىء القيس :

وإذ هى تمشى كمشى النزيـ ـف يصرعه بالكثيب البهر

فلا شك أننا سنسمعه منه :

وإذ هى تمشى كمجى النزيـ ـف يظرعه بالكثيب البهر

أى أنه سيقلب الشين فى «مشى» إلى جيم شديدة التعطيش ليجعلها مجهورة كالياء . كما أنه يشم « الصاد » فتصبح تلك « الظاء » المعروفة بين العوام فى مصر ، لأن الراء التى تليها صوت مجهور . بل قد ينطق بهذا البيت رجل ممن اشتهروا بالعجعجة فنسمع منه كلمة « كمشى » « كمجّ » ، أى يقلب كلا من الياء والشين جيما .

وتصور أيضا أحد العامة فى قبيلة من تلك التى تؤثر الإدغام ولا تحقق الأصوات ، ينطق بقول امرىء القيس :

غدائره مستشزرات إلى العلا تضل المدارى فى مثنى ومرسل

فلاشك أنه سيتلمس أيسر الطرق للنطق بتلك الـكلمة « مستشزرات » ، التى اتخذها علماء البيان مثلا للتعقيد اللفظى ، ويقول « مسترّرات » ، بادغام الشين فى الزاى ، بل وربما قال « مـتزّرات » ، بادغام السين فى التاء أيضا .

كذلك حين نتصور رجلا من ربيعة ينشد بيت امرىء القيس :

أغرك منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

فلا شلا أنه سيقول :

أغرتْش منى أن حبتْشِ قاتلى وأنتْشِ مهما تأمرى القلب يفعل

ولايترتب على هذا إخلال بوزن البيت ، كما قد يتبادر للذهن، لأن الكاف قد قلبت إلى صوت واحد[1] .

بل ويقول أيضا فى مطلع معلقة امرىء القيس :

قفا نبتْشِ من ذكرى حبيب ومنزل

فإذا أنشد بدوى ممن يميلون إلى الادغام قول امرىء القيس :

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شىء سواه بخزان

فسنسمع منه الفعل [يخْزن] [يغزن] بالغين لا بالخاء .

أو قول النابغة :

لئن كنت قد بلغت عنى وشاية لمبلغك الواشى أغش وأكذب

فسنسمع منه كلمة [أكذب] [أجذب] ، بجيم قاهرية .

أو قوله :

فإن أك مظلوما فعبد ظلمته وإن تك ذا عتبى فمثلك يعتب

(١) أنظر صفحة ٨٩

فسنسمع الفعل [يعتب] [يحتب] ، بالحاء لا بالعين .

أو قول طرفة بن العبد :

كالجوابى لا تنى مترعة   لقرى الأضياف أو للمحتضر

ثم لا يخزن فينا لحمها   إنما يخزن لحم المدّخر

فسنسمع البيتين هكذا :

كالجوابى لا تنى مدرعة   لقرى الأضياف أو للمحتضر

ثم لا يغزن فينا لعمها   إنما يغزن لعم المدخر

ثم تصور شاعرا كزهير بن حباب وقد ربى فى قبيلة كلب من قضاعة ، أولئك الذين اشتهروا « بالوهم » « والوكم » ، قد نظم قصيدته الحماسية التى يقول فيها :

أبى قومنا أن يقبلوا الحق فانتهوا   إليه وأنياب من الحرب تحرق

فلما وصل إلى قوله من هذه القصيدة :

فما برحوا حتى تركنا رئيسهم   يعفر فيه المَضْرحىّ المذلّق

سمعنا قومه ينشدون هذا البيت بكسر الهاء فى رئيسهم .

تلك هى أمثلة قليلة ، مما قد تصنعه اللهجات فى الآثار الأدبية ، ومما قد يترتب عليه اختلاف فى روايات البيت الواحد ، بل وقد يترتب عليه نشأة مترادفات للمعنى الواحد .

الفصل الخامس

— ١ —

بنية الكلمات ودلالتها فى اللهجات

قد تبين لنا من بحث الصفات الصوتية المختلفة بين القبائل أنه قد يترتب على معظمها تغيير فى بنية الكلمات ، دعت إليه العادات الصوتية لكل قبيلة منهم ، يلتزمونه فى مواضعه ولا يستطيعون غيره إلا مع كثير من التكلف والعنت . والعربى فى لغة تخاطبه يطلق نفسه على سجيتها ، وينطق كما تعود فى بيئته ، فتبرز فى نطقه تلك الصفات الخاصة التى أشرنا إليها آنفا. ويحسن هنا أن نضيف إلى ما تقدم من صفات ، شيئاً عن صوت القاف الذى أجمعت الروايات على أنه مجهور ، ومع هذا فنحن نسمعه الآن فى أفواه المجيدين من قراء القرآن الكريم ، مهموساً[1] . وقد مرّ هذا الصوت فى عدة أدوار ، وأصابه عدة تطورات بعضها قديم يرجع إلى اللهجات العربية القديمة ، والآخر حديث .

فقد روى أن بعض قبائل « اليمن » وبعضاً من « تميم » ، كانوا ينطقون بالقاف « جيما » قاهرية ، أو مهموس الجيم القاهرية أى الكاف . ونطق القاف كافا أحدث من نطقها جيما قاهرية ، إذ يظهر أن مخرجها قد انتقل أولا فى بعض

---

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٧٢ .

لهجات اليمن من موضع اللهاة إلى أقصى الحنك ، فصادفت هناك نظيراً لها فى الجهر والشدة وهى الجيم القاهرية ، ثم همست فأصبحت الكاف . وهمس القاف تطور حديث لأن القاف الأصلية كانت صوتا يشبه الغين ، فلما همست أصبحت تلك القاف التى نسمعها الآن من قراء العصر الحاضر .

وتغير بنية الكلمات نتيجة تغير صوت من أصواتها ، يعد فى معظم الأحيان تغييرا طفيفا لا يصعب معه التعرف على الكلمة فى صورتها الأصلية ، أو بعبارة أدق فى صورتها الأكثر شيوعا ، والأفصح استعمالا .

ولئن نسب القدماء بعض الروايات لقبائل معينة ، لقد أهملوا ذكر القبائل فى كثير من رواياتهم . فهناك أوضاع مختلفة للكلمة الواحدة رووها على أنها كلها صحيحة جائزة ، فى حين أنه من السهل اليسير الحكم على تلك الأوضاع بأنها تنتمى إلى أكثر من لهجة من لهجات العرب . وقد ملئت معاجم اللغة بكلمات جوزوا فيها أكثر من وضع واحد أو صيغة واحدة . ولنضرب مثلا لما جاء فى معظم المعاجم العربية ، حين الإشارة إلى كلمة « أصبع »[1] فقد روى فيها عشر لهجات هى :

إِصْبَع ، إِصْبِع ، إِصْبُع ، أَصْبَع ، أَصْبِع
أَصْبُع ، أُصْبَع ، أُصْبِع ، أُصْبُع ، وأخيراً أُصْبُوع .

ويظهر أن بعض هذه اللهجات كان من اختراع الرواة أمثال :

---

(١) قال أستاذنا علي الجارم بك : ولا يصح فى الرأى ان قبيلة واحدة تنطق بكلمة الأصبع إلا على صورة واحدة ، غير أن الناس شغلوا عن تحقيق هذه اللهجات وعن نسبة كل لهجة إلى قبيلتها . وهذا بحث شريف خليق بعناية اللغويين . » مجلة مجمع اللغة صفحة ٣٢١ جزء أول » .

إِصْبُع ، أُصْبِع

لأن الانتقال من كسر إلى ضم أو العكس ، مما كانت العرب تنفر منه بصفة عامة . وعلى هذا يمكن إرجاع الباقي من لهجات هذه الكلمة إلى ثلاثة أنواع من القبائل :

قوم يؤثرون البدء بالهمزة مفتوحة ، ولكنهم يختلفون فى حركة الباء فبعضهم يؤثر ضمها ، والآخرون يؤثرون كسرها ، فقبيلة كانت تقول « أَصْبُع » وأخرى تقول « أَصْبِع » ، ثم تطورت لهجة كل منهما إلى « أُصْبَع » ، للانسجام بين الحركات فى الكلمة .

وهناك قبائل كانت تؤثر البدء بالهمزة مكسورة ، ولهجة هذه القبائل كانت « إِصبَع » ثم تطورت إلى « إِصبِع » للانسجام بين الحركات أيضا .

أما القبائل الأخيرة ، فقد آثرت فيما يظهر ، ضم الهمزة فجاءت لهجتها الأصلية « أُصبَع » ، ثم تطورت لانسجام الحركات إلى « أُصبُع » . ولعل هذه اللهجات الأخيرة كانت من اللهجات التى تقف بالتضعيف ، أى أنها تجعل النبر على المقطع [بُع] . ونبر المقطع الأخير يؤدى إلى أحد وجهين إما تضعيف العين أو إطالة حركتها ، مما أدى إلى اللهجة الأخيرة وهى « أصبوع »[1] .

هذه هى آراء سريعة ، نرجح احتمالها فيما يتعلق بكلمة [أصبع] . أما الذي لا يحتمل الشك فهو أن ما صح من هذه اللهجات العشر ، ينتمى إلى لهجات مختلفة بعضها أفصح من بعض .

---

(١) انظر صفحة ١١١

ويمكن أن نلخص العوامل التى دعت إلى اختلاف بنية الكلمات فى اللهجات العربية القديمة فيما يلى :

١ — قبائل تميل إلى صوت لين خاص ، وهذا لا يكون إلا فى الاختيار بين الكسرة والضمة ، لأن كلا منهما صوت لين ضيق[1] .

وعلى هذا إذا روى لنا أن فعلا من الأفعال الثلاثية الصحيحة جاء من باب «ضرب ونصر» ، رجحنا أن إحدى القبائل كانت تنطق به من باب «ضرب» ، وأخرى كانت تنطق به من باب « نصر » . وأمثال هذه الأفعال كثيرة فى المعاجم العربية . وقد أشرنا آنفا إلى أن القبائل البدوية كانت تميل إلى الضم ، فى حين أن القبائل المتحضرة كانت تميل إلى الكسر .

٢ — الميل إلى نسج خاص فى مقاطع الكلمة . فبعض القبائل تؤثر المقاطع الساكنة على المقاطع المتحركة ، ومن هذه قبيلة « تميم » التى روى عنها أنها كانت تؤثر تسكين وسط الكلمة المتحرك .

وإلى هذه القبيلة يمكن أن ننسب تلك اللهجة التى تجوّز تسكين عين الفعل الماضى الثلاثى ، فيقولون فى « كَتَبَ » « كَتْبَ » .

والحقيقة أن معظم اللهجات العربية تنفر من توالى المقاطع المتحركة ، ولكنها تختلف فى نسبة هذا النفور . فإذا روى لنا أن كلمة « فخذ » يجوز فى نطقها « فَخِذ » ، « فخْذ » ، أدركنا أن الصيغة الثانية لقبيلة مثل تميم تلك التى تؤثر المقاطع الساكنة .

٣ — سبق أن أوضحنا أن القبائل المتحضرة بوجه عام تميل إلى تحقيق

---

(١) أنظر كتاب الأصوات صفحة ٣٧ .

كل أصوات الكلمة ، وإعطاء كل صوت حقه فى النطق ، فى حين أن القبائل البدوية تميل إلى تأثر الأصوات بعضها ببعض . ومثل هذا يؤدى إلى اختلاف بنية الكلمة الواحدة بين هذين النوعين من القبائل ، وفيما تقدم من الأمثلة القدر الكافى . كذلك سبق أن شرحنا أن بعض القبائل تؤثر صفات خاصة للأصوات الساكنة ، فبعضها يؤثر الأصوات الشديدة المجهورة ، وآخرون يؤثرون الأصوات الرخوة المهموسة . ومرجع كل هذا البيئة الاجتماعية .

٤ — العامل الأخير الذى يعد أهم العوامل فى تغيير بنية الكلمات بين اللهجات المختلفة هو أخطاء الأطفال وما يترتب عليها :

(ا) فقد يصعب على الطفل تقليد الكبار فى نطقهم لكلمة من الكلمات ، ثم يهمل أمر هذا الطفل فينشأ على الخطأ وتصبح الكلمة ذات صورة جديدة فى لهجته .

(ب) كذلك قد يخطىء الطفل فى سمع الكلمة فيرتب أصواتها ترتيبا مختلفا ، وتصبح فيما بعد ذات وضع مختلف عن الكلمة الأصلية .

(ح) قد يقيس الطفل قياساً خاطئا فيشتق وضعا جديدا غير معروف فى لهجة آبائه ، ثم يصبح هذا الوضع معترفا به بين أبناء جيله .

إلى غير ذلك من مظاهر أخطاء الأطفال وما يميلون إليه فى النطق[1] .

ولا يظهر مثل هذا إلا فى البيئات المنعزلة التى أهمل إصلاح أخطاء الأطفال فيها .

٥ — ويمكن أن يضاف إلى كل ما تقدم عامل آخر كان السبب فيما روى

---

(١) كتاب الأصوات ١٤٦ .

لنا من اختلاف فى بنية الكلمات . وهذا العامل هو احتمال خطأ الرواة فى النقل ولا سيما بعد تدوين اللغة ، ذلك الخطأ الذى سماه القدماء بالتصحيف .

واختلاف بنية الكلمات قد يكون طفيفا ، لايصعب معه التعرف على علاقة الكلمات بعضها ببعض . أما الكلمات التى رويت مختلفة البنية ، فبعضها جامد وذلك كأمثال «أصبع، وفخذ» ، وغير ذلك من الأسماء الجامدة التى اختلف نطقها بين القبائل، لعامل من العوامل السالفة الذكر ، كما أن منها كلمات اختلفت صيغ الاشتقاق فيها ، فقد تشتق قبيلة من القبائل مؤنث الصفات المنتهية بالألف والنون الزائدتين مثل « سكران » ، على وزن سكرى ، ثم يروى لنا أن قبيلة أخرى مثل أسد ، قد شاع فيها اشتقاق مؤنث هذه الصفة ، بتاء التأنيث فيقولون فى مؤنث سكران : سكرانة . كذلك اتفقت الروايات على أن اسم المفعول من فعل أجوف مثل [باع] هو [مبيع] ، ولكن عرفت قبيلة تميم بأنها لا تفرق بين الفعل الأجوف والصحيح فى اشتقاق هذه الصيغة ، فهم يقولون [مبيوع] ، [مديون] بدلا من مبيع ومدين .

ومن السهل تعليل تلك الظاهرة التى شاعت فى أسد وتميم ، بالقياس الخاطىء الذى يلعب دورا هاما فى خصائص اللهجات ، فقد قاسوا اشتقاق المؤنث من سكران ، على اشتقاقه من معظم الصفات الأخرى ، لأن الكثرة الغالبة فى الصفات العربية تؤنث بالتاء . وليس بغريب أن يقاس على اشتقاق الكثرة اشتقاق القلة .

وكما قد يقول الطفل بيننا [أحمرة] بدلا من حمراء ، قياسا على معظم الصفات، قال الطفل الأسدى سكرانة بدلا من سكرى . ثم صار خطأ الأطفال لهجة

معترفا بها بين قبيلة أسد . وكذلك قاس الطفل التميمى صيغة اسم المفعول من الأجوف على صيغته من الصحيح ، لأن الأفعال الصحيحة هى الكثرة الغالبة فى اللغة .

وعلى هذا ، فإذا روى لنا اختلاف فى بنية الكلمات عند الاشتقاق ، فعلينا أن نحاول نسبة كل وضع من أوضاع الكلمة الواحدة ، إلى قبيلة خاصة ، أو مجموعة من القبائل . و بذلك تتحدد خصائص كل لهجة وتتميز اللهجات بعضها من بعض . فهناك اشتقاق المؤنث من المذكر ، وهناك اشتقاق الجمع من المفرد ، وهناك الأسماء الخمسة واختلاف بنيتها بين القبائل ، وهناك اشتقاق المضارع من الماضى ، إلى غير ذلك مما نلحظ اختلاف اللهجات فى وضعه الاشتقاق .

وربما كان أظهر المواضع التى اختلفت فيها اللهجات ، رغم أن القدماء لم يفطنوا إليه ، أو لم يوفقوا في علاجه ، هو اشتقاق مضارع الفعل الثلاثى من الماضى .

وقد جاءتنا كتب الصرف بعلاج مضطرب لما سموه بأبواب الثلاثى ، خلصوا منه إلى أن تلك الأبواب سماعية ، ولا تخضع لقواعد مطردة ، بل كل ما يمكن عمله بصددها هو استنباط قواعد غالبة ، شواذها كثيرة جدا . ولعمرى كيف تصور القدماء أن لغة منسجمة مطردة كاللغة العربية يمكن أن تتضمن كل هذه الأبواب فى اشتقاق المضارع من الماضى الثلاثى ، فى حين أنهم يرون أن جميع الصيغ الأخرى تلتزم حالة واحدة مطردة فى كل المواضع .

يجب إذن أن ننظر إلى أبواب الثلاثى كما رواها النحاة ، على أنها تنتمى إلى أكثر من لهجة واحدة ، وأن الذى رووه ، إن هو إلا مزيج من لهجات عدة .

لأن أساس الفهم فى أية لهجة من اللهجات ، هو الخضوع لقاعدة مطردة نادرة الشذوذ . والذى نستطيع أن نتصوره هو أن كل لهجة من اللهجات ، أو مجموعة منها ، قد التزمت اشتقاق المضارع من الماضى الثلاثى على هيئة خاصة ، لا تشذ عنه إلا فى النادر . فأبواب الثلاثى تنتمى إلى عدة لهجات ، كل منها كانت تلتزم بابا أو بابين من بينها . ويؤيد ما نذهب إليه اشتقاق المضارع من الماضى الثلاثى فى كل اللغات السامية . ولن نحاول هنا فصل تلك الأبواب بعضها عن بعض ، ونسبة كل منها إلى قبيلة خاصة أو مجموعة من القبائل ، لأن هذا يتطلب جمع كل ما ورد فى المعاجم العربية من أفعال ثلاثية ، والبحث فيها ، بعد تبويبها وتنظيمها فى مجموعات متناسقة ، ولعل بحوث المستقبل تكفل لنا هذا . على أننا قد جمعنا كل ما ورد فى القرآن الكريم من أفعال ثلاثية صحيحة غير معتلة ، ماضيها ومضارعها ، لنرى ما يمكن أن تكون قد خضعت له قراءة « حفص » ، التى لا نشك فى أنها تمثل لهجة واحدة منسجمة مطردة فى اشتقاق المضارع من الماضى الثلاثى .

وقبل أن نعرض لهذا البحث الخاص ، نريد أن نشير إلى بعض جهود الأقدمين فى تعليل اختلاف بنية الكلمات . ولعل أظهر علماء العربية فى بحث هذا ، هو « ابن جنى » فى كتاب « الخصائص » الجزء الأول ، إذ عقد فصولا أربعة[1] سمى الأول : « باب فى الفصيح يجتمع فى كلامه لغتان فصاعدا » ؛ والثانى « باب فى تركب اللغات » ، والباب الثالث « فى الأصلين المتقاربين يستعمل أحدهما مكان صاحبه » . وقد وفق ابن جنى فى بعض ما قال فى هذه

---

(١) صفحات ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٤٦٧ ، ٤٧٨ على الترتيب .

الفصول الأربعة ، ولـكن لم يوفق فى البعض الآخر . فقد زعم فى الفصل الأول أن الفصيح يجمع بين لهجتين فى كلامه ، ثم ضرب أمثلة من الشعر لا تـكفى حجة لمـا يدعى ، فلعلها من ضرورات الشعر . وفوق هذا لم يبين لنا ابن جنى ما عنى بكلام الفصيح ؟ ألغة تخاطبه بين أبناء قبيلته تلك التى تخضع لصفات خاصة مميزة عن غيرها من القبائل ، أم كان يعنى لغة الأدب والشعر ، وهى اللغة النموذجية التى اكتسبت معظم صفاتها من لهجة قريش ؟

ونحن نؤثر أن ننسب لـكل لهجة صفات خاصة بها ، وليس من المرجح أن يجتمع فى اللهجة الواحدة صفتان مختلفتان فى أمر واحد ، وكل ما فى الأمر أن المرء من خاصة العرب قد يلتزم شيئاً فى لغة تخاطبه بين أبناء عشيرته ، فإذا عمد إلى بيئة الأدب فنظم الشعر أو خطب الناس فى المواسم والأسواق ، فإنه قد يلجأ إلى صفة مغايرة للهجة قبيلته ، لأن للغـة النموذجية خصائص قد تخالف خصائص كثير من لهجات الـكلام ولغات التخاطب .

وقد روى ابن جنى أمثلة لـكلمات مختلفة البنية مثل :

بغداد = بغدان = مغدان . طبرزل = طبرزن . أيْم = أيْن .

رغوة اللبن = رَغوته = رِغوته = رُغاته = رِغاوته = رُغايته .

الذَّروح = الذُّروح = الذَّريح = الذُّرَّاح = الذُّرَّح = الذُّرنوح الذُّرَحرح الخ .

ومن السهل الحكم على أن مثل هذه الـكلمات المختلفة البنية تنتمي إلى لهجات متعددة ، وقد ينتمى بعضها إلى لهجة واحدة ، ولـكن فى جيلين مختلفين

من أبناء هذه اللهجة . وقد اختتم ابن جنى هذا الفصل بقصة رويت عن الأصمعى قال : اختلف رجلان فى الصقر فقال أحدهما الصقر بالصاد وقال الآخر بالسين ، فتراضيا بأول وارد عليهما فحكيا له ما هما فيه ، فقال لا أقول كما قلتما ، إنما هو الزقر ! !

وليس من المعقول أن هؤلاء الرجال الثلاثة من أبناء لهجة واحدة ، بل إنهم ينتمون إلى لهجات متعددة . وقصة ابن جنى لهذا تقوم حجة عليه لا له . وقد نلتمس العذر لابن جنى لأنه ممن لا يفرقون بين لهجة وأخرى فى الاستعمال ، ويرون جميع اللهجات صحيحة يحتج بها ، وقد عقد فصلا خاصاً بهذا فى الخصائص سماه [باب اختلاف اللهجات وكلها حجة] .

ثم انتقل ابن جنى فى الفصل الثانى إلى ما سماه (تركب اللغات) ، فزعم أن قبيلة كانت تقول قنَط يقنِط ، وأخرى تقول قنِط يقنَط ، ثم تداخلت اللغتان فقال من قال (قنَط يقنَط) . . . .

على أن ابن جنى لم يحدثنا عن كيف تتداخل اللغات ، ولا عن الدوافع التى قد تدعو لمثل هذا التداخل .

ويظهر أن ابن جنى قد مال إلى الناحية الصناعية البحتة في تفسيره أفعالا مثل (قنَط ، يقنَط) و (نعِم ، ينعُم) و (فضِل ، يفضُل) ، وأمثالها مما أعيا القدماء تعليله فى ضوء تلك المقاييس التى وضعوها لأبواب الثلاثى .

ولكن ابن جنى كان موفقاً كل التوفيق حين عرض فى هذا الفصل إلى قانون المغايرة ، الذى اعترف به المحدثون وأشاروا إلى أهميته فى الاشتقاق . فقد قال ما نصه : [وقد دلت الدلالة على وجوب مخالفة صيغة الماضى لصيغة

المضارع] ، ثم قال : [وإنما دخلت يفعُل فى باب فعَل يفعِل ، من حيث كانت كل واحدة من الضمة والكسرة[1] مخالفة للفتحة] .

وليس تداخل اللغات الذى زعمه ابن جنى إلا نوعا من الصناعة لا تبرره تلك الأمثلة التى رواها . وإنما الواجب أن تجمع كل الأفعال الثلاثية ، ماضيها ومضارعها ، ثم تبوب وتنسق وينظر إليها على أنها تنتمي إلى لهجات متعددة . فاذا قيل إن المراد بتداخل اللغات استعارة بعضها من بعض ، واستعارة اللغات بعضها من بعض أمر معترف به بين المحدثين من علماء اللغات ، قلنا إن اللغات قد تستعير الكلمات لا الصيغ ، وليس هناك من مبرر يمكن معه أن تنتقل القبيلة أو الرجل منها ، من قوله (نعِم ينعَم) إلى (نعِم ينعُم) ! !

ومما يؤيد ما نذهب إليه أننا نلحظ فى اللهجات الحديثة ، أن الرجلين من أبناء لهجتين مختلفتين ، قد يلتقيان ويصادق أحدهما الآخر زمانا طويلا ، وكل منهما يلتزم لهجته ، وما نشأ عليه ، فاذا تأثر أحدهما بالآخر ، وأخذ يقلده فى لهجته لسبب من الأسباب ، تكلم كل منهما بعد مران طويل ومخالطة مستمرة لهجة واحدة . أما أن تمتزج اللهجتان وينشأ منهما لهجة ثالثة ، فليس مما يقره المحدثون من الباحثين فى اللغات[2] .

وقد ذكر ابن جنى فى هذا الفصل بعض القصص التى تقوم حجة عليه لا له . فمن ذلك ما روى عن أبى حاتم قال : [قرأ علىّ أعرابى بالحرم طيبى لهم وحسن مآب ، فقلت : طوبى . فقال : طيبى . قلت : طوبى . قال : طيبى ؟ فلما اشتد علىّ قلت : طوطو . فقال : طى طى] .

---

(١) انظر كتاب الأصوات صفحة ٣٧ .

(٢) إلا فى حالة الغزو انظر صفحة ٢٠

وقد تعرض ابن جنى فى الفصل الثالث إلى كلمات رويت مختلفة البنية ، وذلك بأن اختلف ترتيب الأصوات فيها مع اتحاد معناها . وقد فرق ابن جنى بين هذه الكلمات ، فجعل بعضها مقلوباً عن نظائرها ، والبعض الآخر كانت مستقلة بعضها عن بعض وكل منها أصل مستقل بذاته ..

ومثل للكلمات المقلوبة عن نظائرها بمثل (امضحل) فهى مقلوبة عن (اضمحل) ، ومثل (اكرهف) مقلوبة عن (اكفهر) ، ولكنه قال إن كلا من (جذب وجبذ) أصل مستقل بذاته وليس أحدهما مقلوب الآخر .

والحقيقة أن مثل هذه الكلمات متى كانت تنتمى للغة واحدة ؛ يجب أن ينظر إليها على أن بعضها أصل والبعض الآخر مقلوب عنه ، ولا معنى للتفرقة بينها . وتكاد هذه الظاهرة تشترك فى معظم لغات العالم التى اشتملت على كلمات متحدة المعنى والأصوات ولكن ترتيب الأصوات فيها مختلف . وهذه الظاهرة هى فى الأصل من أخطاء السمع بين الكبار ، أو من أخطاء الأطفال ثم صار الخطأ صواباً .

وأخيراً تعرض ابن جنى فى الفصل الرابع إلى أن بعض الكلمات قد تختلف بنيتها ، وذلك بأن يستعمل أحد الحرفين المتقاربين مكان صاحبه ، ثم ضرب أمثلة لهذا مثل :

طبرزل : طبرزن . دهمج : دهنج . خامل : خامن . بنات مخر : بنات بخر .

ومثل هذه الكلمات يمكن أن تنتمى إلى لهجات متعددة ؛ أو إلى لهجة واحدة ولكن فى جيلين مختلفين من أبنائها .

على أن ابن جنى لم يحدثنا فى هذا الفصل عن معنى تقارب الصوتين ، ووجه الشبه بينهما من الناحية الصوتية . وقد ملئت المعاجم العربية بهذا النوع من الكلمات ، وسنفرد فصلا مستقلا لما جمعناه منها .

الآن نعرض إلى تلك القواعد التى خضع لها اشتقاق المضارع من الماضى الثلاثى الصحيح ، مستنبطين تلك القواعد مما ورد فى قراءة حفص من أفعال ثلاثية صحيحة لها مضارع وماض ، وكلاهما جاء ذكره فى القرآن الكريم . و إننا نهدف بهذا إلى الاستدلال على أن ماسماه القدماء بأبواب الثلاثى ، ينتمى إلى لهجات متعددة ، وأن للهجة الواحدة قواعدها الخاصة ، كما سترى من قواعد الأسلوب القرآنى فى قراءة حفص ، وهى ولا شك تمثل لهجة واحدة منسجمة مطردة قد أحكمت روايتها وتواترت .

ورد فى كل القرآن الكريم من الأفعال الثلاثية الصحيحة مستعملة فى الماضي مرة وفى المضارع مرة أخرى (نحو ١٣٤ فعلا) ، وقد تركنا تلك الأفعال التى استعملت فى الماضى فقط أو للمضارع فقط .

وحين استعرضنا تلك الأفعال التى جاءتنا فى قراءة حفص فى الماضى مرة والمضارع مرة أخرى ؛ اتضح لنا أنها لا تشتمل على ذلك الباب الذى سماه النحاة (فعِل يفعِل) ؛ بل لقد خلت أيضاً من ذلك الباب الذى سموه (فعُل يفعُل) إلا فى فعلين اثنين هما : « كَبُر يكبُر ، وبصُر يبصُر » فى مثل قوله تعالى : [كبرت كلمة تخرج من أفواههم] وقوله [فبصُرت به عن جنب وهم لا يشعرون] .

ولا شك أننا نلحظ فى مثل هذا الفعل معنى من معانى المبالغة ، أو شدة

فى الحدث ، يرجح عندنا أن مثل هذه الصيغة متفرعة عن [فَعَل] ، وأنه لا يلجأ إليها إلا حين يراد المبالغة فى معنى الحدث الذى تتضمنه الصيغة الأصلية [فَعَل] . فليست إذن من أبواب الثلاثى ، بل يجب أن ينظر إليها على أنها فرع مستقل ، زاد معناه بتحول الصيغة الأصلية [فَعَل] إليه .

أما باقى الصيغ الثلاثية التى وردت فى القرآن الكريم ، فهى أحد وجهين لا تخرج عنهما وهما [فَعَل] ، [فَعِل] .

والصيغة الأولى هى الأكثر شيوعاً فى الأسلوب القرآنى ، لأن به حوالى ١٠٧ فعلا ماضياً صحيحاً صيغته [فَعَل] ، وحوالى ٢٤ من صيغة [فَعِل] .

والقاعدة التى خضعت لها قراءة حفص فى اشتقاق المضارع من هذه الأفعال هى المغايرة التى أشرنا إليها آنفاً . فصيغة [فَعَل] فى الماضى يناظرها صيغة [يفعِل] أو [يفعُل] فى المضارع ، لأن الفتحة كما قال ابن جنى تقابل الضمة أو الكسرة . إذ الفتحة صوت متسع ؛ فى حين أن كلا من الضمة والكسرة صوت ضيق[1] . أما صيغة [فعِل] فى الماضى فقد قابلها دائماً [يفعَل] فى المضارع ، لم يشذ عن هذا فعل من الأفعال التى جاءت فى قراءة حفص .

تلك هى القاعدة التى يمكن استنباطها من أفعال القرآن ، وهى واضحة جلية لا تعقيد فيها ، ومن الطبيعى أن تكون كذلك .

أما تلك الأفعال التى وردت من صيغة [فعِل] فى الماضى و [يفعَل] فى المضارع ، فقد دعا إليها عوامل صوتية فى بنية الفعل نفسه ، وذلك أن عين الكلمات أو لامها من أصوات الحلق ، تلك التى تؤثر فى كل اللغات السامية ، الفتحة على غيرها من الحركات .

---

(١) كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٣٧ .

وقد فطن الأقدمون من علماء اللغات إلى ميل الأصوات الحلقية إلى الفتحة ، وأقرهم على هذا المستشرقون . وقد ظهر هذا الميل بصورة أوضح فى اللغة العبرية . أما السرفيه ، فهو أن كل أصوات الحلق بعد صدورها من مخرجها الحلق ، تحتاج إلى اتساع فى مجراها بالفم ، فليس هناك ما يعوق هذا المجرى فى زوايا الفم ، ولهذا ناسبها من أصوات اللين أكثرها اتساعا ، وتلك هى الفتحة . ولم يشذ عن هذه القاعدة بين أفعال القرآن الكريم إلا أفعال قليلة هى :

نكح ينكح ، نزع ينزع ، رجع يرجع ، بلغ يبلغ ، قعد يقعد زعم يزعم ، نفخ ينفخ ، وأخيراً قنط يقنط .

وكان حق مضارع الأفعال السبعة الأولى أن يكون بالفتح ، وأن يكون مضارع الفعل الأخير بالكسر أو الضم .

وقد أثار الفعل « قنط يقنط » دهشة بين القدماء ، وبدأوا يتأولونه على أنه من تداخل اللغات .

والحقيقة أن اللهجة الواحدة يجب أن تخضع لقاعدة مطردة فى الكثرة الغالبة من صيغها ، ولكن قد يتخللها القليل من الصيغ التى تسمى عادة بالشاذة .

وفى مثل هذه الحالة يجب أن تدرس هذه الصيغ على انفراد ، وأن يبحث عن مصدرها أو سر شذوذها .

ويغلب أن يعزى هذا الشذوذ إلى انحدار الفعل من لهجة آخرى لها قواعد أخرى تخضع لها .

وليس معنى هذا استعارة الصيغة ، وإنما معناه استعارة الفعل بصيغته .

ولهذا نرجح أن الأفعال :

[نزع ينزع . نكح ينكح . رجع يرجع . قنط يقنط . نفخ ينفخ . بلغ يبلغ . قعد يقعد . زعم يزعم .]

تنتمى إلى لهجة أخرى غير اللهجة التى نزل بها القرآن الكريم .

وربما كان يعبر عن معانى هذه الأفعال قبل استعارتها فى لهجة القرآن الكريم ، بمثل الأفعال الآتية على الترتيب :

قلع يقلع . تزوج يتزوج . عاد يعود . . . الخ

أو أن هذه الأفعال فيما عدا [قنط يقنط] قد غلبت عليها المغايرة لظروف لغوية خاصة باستعمالها .

ولا بأس بعد هذا من أن نورد الأمثلة القرآنية من أفعال بابها « فَعَل يفعِل » :

عقل يعقل . ظلم يظلم . عرف يعرف . فرض يفرض . عزم يعزم . ضرب يضرب . حرص يحرص . ربط يربط . قبض يقبض سبق يسبق . بطش يبطش . كسب يكسب . ملك يملك . حلف يحلف . لبس يلبس . كذب يكذب . صبر يصبر . صدف يصدف صرف يصرف . نبذ ينبذ . غلب يغلب . كنز يكنز . نفر ينفر . سرق يسرق . حمل يحمل . قدر يقدر . كشف يكشف . خسف يخسف . فصل يفصل . غفر يغفر . ختم يختم . فتن يفتن . قذف يقذف . عدل يعدل . نقم ينقم . قسم يقسم . هلك يهلك . نكص ينكص . نزل ينزل .

وها هى ذى الأفعال التى بابها « فعَل يفعُل » :

خلف يخلف . كتم يكتم . مكث يمكث . عمر يعمر . حسد يحسد . نكث ينكث . سكن يسكن . سلك يسلك . شكر يشكر طرد يطرد . نظر ينظر . ترك يترك . سجد يسجد . حشر يحشر . مكر يمكر . درس يدرس . عبد يعبد . بسط يبسط . خرج يخرج حكم يحكم . حضر يحضر . ذكر يذكر . فسق يفسق . نقض ينقض نصر ينصر . دخل يدخل . خلق يخلق . رزق يرزق . قتل يقتل . كتب يكتب . كفر يكفر .

أما الأفعال التى جاء مضارعها مفتوح العين بسبب حرف من حروف الحلق فهى :

ذهب يذهب . نفع ينفع . لعن يلعن . فعل يفعل . بعث يبعث . قطع يقطع . طبع يطبع . فتح يفتح . جحد يجحد . نصح ينصح . سحر يسحر . خشع يخشع . جمع يجمع . رفع يرفع . ذبح يذبح . جعل يجعل . صنع يصنع . ظهر يظهر . جهر يجهر . زهق يزهق . شرح يشرح منع يمنع .

وها هى ذى الأفعال التى لا شذوذ فى أمثلتها القرآنية والتى جاءت من باب « فعِل يفعَل » :

نفد ينفد . عجل يعجل . شرب يشرب . رحم يرحم . سمع يسمع . شهد يشهد . علم يعلم . حسب يحسب . عمل يعمل . فشل يفشل . بخل يبخل . عهد يعهد . ركب يركب . ثقف يثقف . حبط يحبط . خطف يخطف . سخط يسخط . سخر يسخر . لبث يلبث . ضحك يضحك .

عجب يعجب . حفظ يحفظ . كره يكره . طعم يطعم . فرح يفرح .

من كل هذا نستطيع أن نرجح أن اللهجات العربية القديمة قد خضعت لقواعد مختلفة فيما يتعلق باشتقاق المضارع من الماضى الثلاثى . ولعل من القبائل من كانوا يوثرون صيغة « فعِل يفعَل » ، أو لعل منها من كانوا يقولون « فعُل يفعَل » إلى غير ذلك من الاحتمالات التى ستكشف عنها بحوث المستقبل .

وكل الذى نستطيع أن نؤكده هنا ، هو أن كل لهجة كانت تخضع لقواعد خاصة بها ، لا تحيد عنها إلا فيما تستعيره من لهجات أخرى . وقد لاحظنا فى كل ما تقدم من تغيير فى بنية الكلمات أن التغيير طفيف ، لم يمنعنا من التعرف على أكثرها شيوعاً وأفصحها استعمالا .

— ٢ —

المترادفات

لعل أهم ما ترتب على تغير بنية الكلمات بين لهجات القبائل المختلفة ، أن جاءتنا المعاجم اللغوية بمجموعة كبيرة من الكلمات سميت بالمترادفات ، لأنها قد اتحدت معنى واختلفت فى الصورة ، وإن كان اختلاف صورتها ظاهرياً لا حقيقياً . إذ من السهل معرفة الأصلى الصورة ، وما تفرع عنه لعامل من عوامل تطور الأصوات[1] .

ومن المترادفات العربية ما اختلفت ألفاظها اختلافا واضحا ، فلا تمت تلك

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١٦٠

الألفاظ بعضها إلى بعض بأية صلة مثل « القمح والحنطة » . وهذا النوع الأخير هو الخليق بتسميته بالمترادف . على أن القدماء فى بحوثهم للكلمات المترادفه ، قد خلطوا بين النوعين ولم يميزوا بينهما .

وقد اختلف القدماء من علماء اللغة حين عرضوا للبحث فيما يسمى بالمترادف من الكلمات ، فأنكره بعضهم وأخذوا يتأولون ماورد منه تأولا لا يخلو من التعسف والتكلف .

أما الذين حاولوا اثباته ، وهم الكثرة بين علماء اللغة العربية ، فقد أسرفوا فى التمثيل له ، وجاءوا بكلمات عدوها مترادفة دون علاقة ظاهرة بين معانيها[١] .

ولامعنى لانكار الترادف مع تلك الأمثلة الكثيرة التى جاءتنا بها الأساليب العربية ، وتلك الروايات التى ثبتت صحتها . فقد روى أن أبا هريرة لقى النبى صلعم وقد وقعت من يده السكين ، فقال له ناولنى السكين ، فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم ما المراد بهذا اللفظ . فكرر له القول ثانية وثالثة وهو يفعل ذلك ، ثم قال « آلمدية تريد ؟ » وأشار إليها ، فقيل له نعم . فقال أو تسمى عندكم سكينا ؟

ثم قال والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ .

ولعل هذه الحادثة كانت قبل نزول القرآن الكريم بلفظ السكين فى سورة يوسف .

(١) حاول أستاذنا على الجارم بك التوفيق بين الرأيين فى مقال له مستفيض نشر فى مجلة المجمع اللغوى الملكى ، فكان موفقا كل التوفيق وقد اقتبسنا هنا طرفا مما جاء فى هذا المقال . الجزء الأول صفحة ٣٠٣ .

ومن الروايات التى أجمعت عليها كتب الأدب ، ماروى أن رجلا من بنى كلاب أو من سائر بنى عامر بن صعصعة ، خرج إلى ذى جدن من ملوك اليمن فاطلع إلى سطح والملك عليه . فلما رآه الملك اختبره فقال له « ثِبْ » يريد اقعد ، فقال الرجل « ليعلم الملك أنى سامع مطيع » ثم وثب من السطح . فقال الملك ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ، إن الوثب فى كلام نزار الطمر «أى الوثوب إلى أسفل » ، فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم ، من دخل ظفار حمر « أى من دخل مدينة ظفار اليمنية فليتكلم الحميرية » .

وقد أدى هذا إلى استعمال « وثب » مرادفة « لقعد » فى لهجات الشمال ، وروت المعاجم العربية من معانى الوثوب القعود .

وسنوضح الأصل الاشتقاقى لهذه الكلمة عند الحديث عن المشترك اللفظى .

بل كيف ينكر المترادف مع وجود تلك الكلمات العربية التى لا نلحظ فى معانيها فرقا مهما أجهدنا أنفسنا فى التأول والتحايل ، مثل : القمح والحنطة والبر ؟

وقد شاعت بعض كلمات خاصة فى لهجة من اللهجات العربية ، آثرتها بالاستعمال ، أو قل لم تكن تعرف غيرها ، فى حين أن بعض القبائل الأخرى كانت تعبر عن نفس المعانى بكلمات متباينة الصورة ، ولا تعرف غيرهـا فى حديثها وشئون حياتها .

فلما جاء عصر تدوين اللغة ، وجمعت كل تلك الكلمات ، دون محاولة نسبتها إلى بيئاتها قبل الإسلام ، رأينا ذلك المزيج الغريب من كلمات مترادفة كثيرة فيما روى من اللغة العربية ، مما لا نظير له فى أية لغة من لغات العالم .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم فى الكتابة للقبائل يراعى بقدر الإمكان

ما اشتهر عندهم من كلمات . فمن ذلك كتابه لوائل بن حجر أحد ملوك حمير [إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب[1]] ... الخ .

وكتبه صلى الله عليه وسلم لقبائل اليمن بصفة خاصة ، مشهورة روتها كتب الأدب وشرحتها شرحاً وافياً .

ويظهر أن الذين اختلفوا فى الترادف فأنكره بعضهم ، وأثبته البعض الآخر ، قد نظروا إليه من زاويتين مختلفتين . فأولئك الذين أنكروه ، لم ينظروا إلى معانى الكلمات فى عصر خاص ، بل كانت نظرتهم إليها نظرة تاريخية ، فيها يبحثون عما كانت عليه المعانى ، وما صارت إليه ، ويتتبعون أدوارها فى أكثر من عصر واحد . ولذلك عدوا كثيراً من أسماء (السيف) صفات لا أسماء ، فى حين أن الذين عدوها مترادفات ، نظروا إليها على أنها صفات منسية ، قد أصبحت أسماء بعد أن تنوسيت الفروق بينها ، وأصبحت كلها تستعمل للتعبير عن السيف ، دون ملاحظة وصف خاص به .

وعلى هذا ، فما روى من جدل لغوى بين ابن خالويه وأبى على فى هذا الشأن ، إنما يمثل وجهتى نظر متباينتين فى الظاهر متحدتين فى الحقيقة . فقد روى عن أبى على الفارسي قال [كنت بمجلس سيف الدولة بحلب ، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة ، وفيهم ابن خالويه ، فقال ابن خالويه : أحفظ للسيف خمسين اسماً ، فتبسم أبو على وقال : ما أحفظ له إلا اسماً واحداً وهو السيف ، قال ابن خالويه : فأين المهند والصارم وكذا وكذا ؟ قال أبو على : هذه صفات] .

---

(١) « القيل » فى لهجة اليمن كالوزير فى العهود الاسلامية ، « والعباهلة » الذين اسـقر ملـكهم ، « والأرواع » السادات ، « والمشابيب » الأذكياء .

فما لا شك فيه أن أبا على وأمثاله نظروا للكلمات نظرة تاريخية ، فرأوها في عصورها الأولى تعبر عن صفات متميزة ، وهذا الاتجاه هو الذى يعبر عنه المحدثون من علماء اللغات Diachronic .

ولكن موضع الزلل عند هؤلاء العلماء ؛ أنهم نظروا إلى تاريخ الكلمات وتطورها نظرة سطحية خالية من عمق ، كما لو أن تاريخ الكلمات ونشأتها أمر يعد بالسنوات ، ولم يدر بخلدهم أنه آلاف من السنين ، ومن العبث البحث في أصل وضع الكلمات ، حين نريد البحث في المترادفات .

أما أمثال ابن خالويه ؛ فإنهم نظروا إلى ما صارت إليه الكلمات في عهد خاص ، حين تنوسيت الوصفية من تلك الكلمات ، فأصبحت أسماء لا يلحظ الكاتب أو الشاعر فروقاً بينها في الاستعمال ، وتلك النظرة هي التي يعبر عنها المحدثون بقولهم « Synchronic » ؛ أي النظر إلى اللغة كما هي في عصر من العصور ، دون اعتبار لما كانت عليه قبلا ، فهي نظرة وصفية تحليلية ، وهي النظرة التي نؤثرها هنا ونبحث المترادفات في ضوئها .

ونحن حين نستعرض الأساليب العربية التي صحت روايتها لا نشك لحظة في الترادف بين بعض الكلمات العربية ، دون مغالاة في هذا ، إذ يجب التفرقة بين الأسماء والصفات التي ظلت على وصفيتها ، كما يجب إبعاد الكلمات التي اشتركت في جزء من معناها ، واختلفت في الجزء الآخر أمثال :

[جلس ، قعد] ؛ لأن في « قعد » معنى ليس في « جلس » . ألا ترى أنا نقول قام ثم قعد ، وأخذه المقيم المقعد ، ثم تقول كان مضطجعاً فجلس ، فيكون القعود عن قيام ، والجلوس عن حالة هي دون الجلوس .

فإذا أبعدت عن المترادفات تلك الكلمات التي تحايل عليها من أثبتوا الترادف ، وخلقوا بينها مماثلة في المعنى ، كما أنه إذا أبعدت تلك الكلمات التي لم ترد في نص لغوى صحيح النسبة ، وجدنا أنفسنا أمام عدد معقول من المترادفات في اللغة العربية .

وليس هنا مجال البحث بإسهاب عن أسباب الترادف في اللغات بصفة عامة ، وإنما نقتصر على الإشارة إلى أهم الأسباب التي ولدت الترادف في كلمات اللغة العربية ؛ فترجعها إلى العوامل الآتية :

ا — إيثار بعض القبائل لكلمات خاصة تشيع بينها وتكاد تكون مجهولة في القبائل الأخرى ، كما لاحظنا في الروايات التي أشرنا إليها آنفاً .

ب — استعارة كلمات من لهجة من اللهجات ، أو لغة من اللغات ، بسبب الغزو أو الهجرات ، أو الاحتكاك بين القبائل ، فيصبح للمعنى الواحد أكثر من كلمة واحدة ، وفي هذه الحالة لا تتساوى نسبة الكلمتين في الشيوع ، بل ينظر إلى الكلمة المستعارة نظرة أرقى وأسمى في الاستعمال ، وذلك لأنها انحدرت من قوم أرقى في الناحية الاجتماعية أو السياسية ، أو لأنها أخف على السمع وألطف في الجرس .

وقد أجمع الرواة على أن قريشاً كانت تتخير من كلمات القبائل في مواسم الحج والأسواق ، ماخف على اللسان وحسن في السمع ، حتى لطفت لهجتهم ، وجاد أسلوبهم .

حـ — هناك صفات تفقد عنصر الوصفية مع مرور الزمن وتصبح أسماء لا يلحظ الكاتب أو الشاعر ما كانت عليه ، فيؤدى هذا إلى الترادف . ونحن نلحظ هذا بصفة خاصة ، في تلك الكلمات العربية التي تعبر عن أشياء ذات

اتصال وثيق بالبيئة البدوية ، والحياة الاجتماعية فيها .

وفيما روى للجمل والسيف والعسل من كلمات عربية كثيرة ، خير شاهد على ما نقول .

ء — من الكلمات ما تشترك معانيها فى بعض الأجزاء ، وتختلف فى البعض الآخر ، ويمكن تشبيهها بدوائر متحدة المركز ، ومختلفة فى جزء من سطوحها . فإذا مر عليها زمن طويل ، ودعت عوامل تغير المعانى أن تنطبق الدوائر بعضها على بعض ، أصبحت تلك الكلمات مترادفة . لأن المعانى لا تبقى على حالة واحدة ، فقد يصبح الخاص عاما أو يصبح العام خاصا .

فإذا قارنا بين الكلمة [هلك] فى العربية ، وجدنا معناها فى العبرية لكل نوع من الذهاب ، فى حين أن معناها فى العربية قد تحدد فأصبح مقصوراً على نوع واحد من الذهاب وهو [الهلاك] .

هـ — المجازات المنسية قد تولد نوعا من الترادف فى الكلمات ، فقد تستعمل بعض الكلمات استعمالا مجازيا ، يطول العهد عليه ، فيصبح حقيقة . وهنا نرى كلمات مستعملة بمعانيها الأصلية الحقيقية ، جنباً إلى جنب مع تلك التي أخذت معانيها عن طريق المجاز .

والمعانى الأصلية الحقيقية ، هى المعانى الحسية ، التى يتفرع عنها عادة عن طريق المجاز ، ما يشيع من معنويات . فالرحمة مثلا قد اشتقت من [الرحم] موضع الولد ، والمكان الذى يلد الأبناء والأخوات ، فتنشأ بينهم صلة من الحب والعطف . فلعل الرحمة فى الأصل هى عملية النسل من الأرحام ، ثم استعملت فى قديم الزمان عن طريق المجاز فى الصلة بين الذين يولدون من رحم واحد .

وقد تقادمت العهود على هذا المعنى المجازى ، حتى أصبح حقيقة ، وبهذا نشأ الترادف بينها و بين كلمة مثل (الرأفة) .

لا نريد بعد هذا أن ننساق مع بعض العلماء حين عددوا فوائد المترادفات للكاتب والشاعر والخطيب ، لأن مثل هذا البحث قد يخرجنا عما نهدف إليه فى هذا الكتاب ، وإنما نريد الإشارة إلى ذلك النوع من الكلمات التى ظنها بعض العلماء من المترادفات ، فى حين أن اختلاف الصورة بينها ، ليس إلا ظاهريا ، وأنها كلمات ذات أصل واحد ، وتطورت صورتها لعامل من عوامل تطور الأصوات .

وليست هذه الكلمات بمترادفات حسب المعنى الدقيق للترادف . وقد مثل القدماء لقليل من هذه الكلمات ، دون أن يشرحوا لنا العلاقة الصوتية بينها . لهذا قمت بجمع عشرات من تلك الكلمات ، أوردها هنا مبوبة مع شرح العلاقة الصوتية بينها ، وكيف تطورت إلى صور متعددة .

الشدة والرخاوة

١ — الهمزة والهاء :

هلبت السماء القوم مطرتهم مطراً متتابعاً : ألبت السماء دام مطرها .

أتّه بالحجة : الهتّ سرد الكلام ، والهتات الكثير الكلام .

الأزّ ، رمى السلاح : هرّ سلحه استطلق .

الأصر العطف : المصر عطف شيء رطب .

أزّ : هزّ . الألس اختلاط العقل : مهتلس العقل مسلوبه . الأبْش الجمع : الهبْش . يأشّ : يهش .

أضّه كسره : هضّه وطئه فشدخه . أضّ كسر : هضّ . أراق : هراق .
أزم القوم استأصلهم : هزم . بدهه بأمر : بدأه به . درأ الرجل خرج فجأة : دره هجم وطلع .

٢ — الهمزة والعين :

بدأ الله الخلق خلقهم : بدعهم . الخباء : الخباع . دنع الصبي خضع وذلّ ولؤم : الدنئ . شنأه كرهه : شنيع كريه . الأزر التقوية : التعزير . الأُشْر الشدّ والعصب : العسر . ألك الفرس اللجام : علكه . الأُتُم زيتون البر : العُتُم .

٣ — الباء والميم :

كمح الدابة : كبحها . الطّبْش الناس : الطمش . رأيته عن كثب : رأيته عن كثم . ثلَبه : ثلمه .

٤ — الباء والفاء :

ناقة زفون : زبون . إفّانه : إبّانه . الفُسكل : البُسكل .

٥ — الضاد والظاء :

عظّته الحرب : عضته . ظجّ صاح فى الحرب صياح المستغيث وبالضاد فى غير الحرب . فاظ مات : فاضت روحه .

٦ — الدال مع الذال أو الزاى :

ذشّ الرجل سار : دسّ . الدغدغة : الزغزغة . فشرد بهم : فشرذ بهم (قراءة) .

٧ — الجيم والياء :

شجرات : شيرات .

٨ — التاء مع السين :

اتخذ : استخذ .

الجهر والهمس

١ — الدال والتاء :

المد : المت . هرد اللحم أنعم إنضاجه أو طبخه حتى يهرأ : الهرت الطبيخ البالغ . فدغه شرخه : فتغه . فدرّ الفحل : فتر .

٢ — الذال والثاء :

بثّ الخبز نشره وفرقه : البذّ من التمر المنتثر . الجثّ القطع : الجذ .

الملْث الوعد بلا نية الوفاء : الملْذ الـكذب . تلعثم : تلعذم . جذوة : جثوة . جذا : جثا .

٣ — الجيم والشين :

جزر قطـع : الشزر القطع . جفّه طرده : شـظّ القوم طردهم . الجفن : شفنَ نظر بمؤخر عينه .

٤ — العين والحاء :

الفلح الشق وفلح الأرض شقها : فلعه شقه . لطحـه ضربه ببطن كفه أو ضرباً ليناً على الظهر : اللطع أن تضرب مؤخر الإنسان برجلك . أمتح النهار ارتفع : متع النهار ارتفع قبل الزوال . حظِب سَمِن : عظب . الحوْس الجوْس : العوس الطوفان بالليل . حنشه عن الشيء عطفه : عنش . الحبكة : العبكة .

٥ — الغين والخاء :

زاغ فى المنطق جار : زاخ . الخود الناعمـة الرقيقة : الغيد . خرز الجلد بالخرز ثقبه : غرز الإبرة . الأخنّ : الأغنّ . الخنّة : الغنّة .

٦ — الزاى والسين :

الحرز الموضع الحصين : حـرس الشيء . غرس : غرز . سنِخ الدهن : زنخ . زرد الدرع : سردها . الزلَع شقاق في ظاهر القـدم

وباطنه : السلعْ الشق فى القدم . زفت الريح السحاب طردته واستخفته : سفت الريح التراب . الزفت : السفت .

الاطباق والاستفال

١ — الصاد والسين :

الدخيس اللحم المكتنز : دخصت الجارية امتلأت شحما . الرغْس الارتعاش والانتفاض : الرعص النفض والهز وارتعص انتفض . المَغص : المغس . ما ينبس ما يتكلم : ما ينبص . السَّقْب ولد الناقة : الصقب . سفح الجبل عُرْضه المضطجع : صفح الجبل مضطجعه . الصراط : السراط . الصَّعوط : السعوط . السَّنْط : الصنط . سلّطه : صلطه . سفعَ : صفع . صلغتْ الشاة : سلغت . السَّخَب : الصَّخَب . البساق : البصاق .

٢ — الظاء والذال :

ذأته خنقه : ظأته .

٣ — الطاء والتاء أو الدال[1] :

غتّه فى الماء : غطّه . هتلت السماء : هطلت . الغَلت : الغلط .
دلع لسانه أخرجه : طلع . دحمه دفعه شديداً : الطَّحوم الدفوع .

(١) الطاء كما تنطق الآن هى الصوت المطبق للتاء ولكن يظهر أنه كان ينطق بها قديما كما ينطق الدال . أنظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٥٢

نسبة الوضوح فى السمع

هناك أصوات اتحدت فى الصفة ولكنها اختلفت فى نسبة وضوحها فى السمع ، وهذه الأصوات يحل بعضها محل بعض ، كالراء مع اللام ، فان الأولى أوضح فى السمع من الثانية ، مع أن كلا منهما من الأصوات المتوسطة الشبيهة بأصوات اللين . وكذلك السين مع الفاء ، والحاء مع الهاء ، والثاء مع الفاء .

١ — الراء واللام :

الرّخف الزبد : اللّخف . رمقه لحظه : اللمق النظر . رَبكه خلطه : اللّبْك الخلط . الرمز واللمز الإشارة . رتب رتوبا ثبت : اللّتب اللزوم والثبات . الخيزرى مشية خاصة : الخيزلى . ربَدَ أقام : لبد . الركود السكون : لكد عليه الوسخ لزمه . جرفه : جلفه . رعلّ : لعل . تبرّص : تبلّص .

٢ — الثاء والفاء :

جدث : جدف . الجثل النمل : الجفل .

ثار : فار . انثجر الماء : انفجر .

الثغر الفم : فغر الفم بابه . ثلغ رأسه شدخه : الفلْغ الشق . مغفور : مغثور .

ثجلَ عظم بطنه واسترخى : فجلَ استرخى وغلظ .

٣ — السين والفاء :

رجست السماء رعدت شديداً : رجف الرعد ترددت هدهدته فى

السحاب . وارتجس البناء : رجف . الشوس النظر بمؤخر العين تكبرا أو تغيظا : الشّنْف النظر إلى الشيء كالمعترض عليه أو كالكاره له .

الوجْس الفزع : وجف يجف اضطرب خوفاً . سطح : فطح . السلْع الشق فى القدم : القلع . السحَم : الفحَم .

٤ — الحاء والهاء :

التحريش بين الناس الإفساد : التهريش .

ويمكن أن نعزو جميع ما تقدم من أمثلة ، إلى الاختلاف بين البيئة البدوية والبيئة الحضرية ، كما أشرنا فى موضعه . وهناك أمثلة أخرى يرجح أنها نتيجة أخطاء الأطفال ، فقد كانت تستعمل فى البيئة الواحدة ولكن فى أجيال مختلفة منها .

وهذه الكلمات التى سنوردها تختلف إما فى مجرى الصوت من الفم أو الأنف مع الاتحاد فى الصفة ، أو تختلف فى مخرج الصوت ، وذلك بانتقاله من موضعه إلى موضع آخر أيسر فى النطق ولا يحتاج إلى جهد عضلى ، أو قد تختلف الكلمات فى ترتيب أصواتها .

اختلاف المجرى

الشثْل غلظ الأصابع : الشثن . غَمِلَ الجلدُ : غمنه . امتقع لونه : التقع . لعلّ : لعنّ .

أصيلالا : أصيلانا .

اختلاف المخرج

١ — الكاف والتاء :

بتكه قطعه : بتّه . عركت أنفه دلكه : عرك دلكه وحكه . الأعفت الأحمق : عفلت حمق جداً .

تخ تخ زجر للدجاج : كخ كخ زجر للصبى .

٢ — القاف التى كان ينطق بها فى الأصل كالغين[1] ، حلت الغين محلها فى بعض الكلمات ، ثم همست كما ننطق بها الآن فحلت الكاف محلها فى بعض الكلمات :

غثم له من المال دفع له دفعة جيدة : قثم .

الغمس الغوص : القمس . قرثه الأمر : كرثه . الدكّ : الدق . الدفكة : الدعقة .

حزقه ضغطه وشده : حزكه عصبه وضغطه . الغسق : الغسك . القحّ : الكح . القهر : الكهر . القحط : الكحط .

٣ — السين والشين :

الرغس : الرغش . الغبس الظلمة : الغبش . معسه دلكه شديداً : المعش الدلك الرقيق . النسّ السوق والزجر : النشّ السوق الرقيق . نهشه

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٧٢ .

أخذه بأضراسه وبالسين أخذه بأطراف أسنانه . سئغتْ يده تشققت وتشعث ما حول الأظافر : شئغت أصابعه تشعث ما حول أظافرها .

اختلاف ترتيب الأصوات

اللجز : اللزج . جذب : جبذ .. ربض : رضب . صاعقة : صاقعة . عميق : معيق . لبكتُ الشيء : بلكته . سحاب مكفهر ومكرهف . اضمحل : امضحل .

— ٣ —

المشترك اللفظى

لا بد فى الحديث عن اللهجات العربية من التعرض لنوع من الكلمات ، رويت لنا متحدة الصورة مختلفة المعنى . وقد تعود القدماء أن يسموا هذا النوع من الكلمات بالمشترك اللفظى ، لأن الكلمة الواحدة مع محافظتها على لفظها وأصواتها ، تعبر عن أكثر من معنى واحد .

وقد عرض القدماء فى بحوثهم لهذه الكلمات ، فأنكرها بعضهم ، وتأول ما ورد منها بأن جعل أحد المعنيين حقيقياً والآخر مجازياً ، وعلى رأس هذا الفريق ابن درستويه . ولكن الكثرة من علماء اللغة ، قد ذهبوا إلى ورود المشترك اللفظي ، وضربوا له أمثلة كثيرة ، وعلى رأس هؤلاء الأصمعي ،

والخليل ، وسيبويه ، وأبو عبيدة ، وغيرهم . بل لقد أفرد بعض هؤلاء مؤلفات خاصة سردوا فيها أمثلة المشترك اللفظى .

ويظهر أن كلا الفريقين قد أسرف فيما ذهب إليـه ، وبعد عن جادة الصواب فى بحثـه ، إذ لا معنى لانـكار المشترك اللفظى مع ما روى لنا فى الأساليب العربية الصحيحة من أمثلة كثيرة ، لايتطرق إليها الشك . كذلك لا معنى إلى المغالاة فى رواية أمثلة له مع ما فى هذا من التعسف والتـكلف . ولـكن كما اختلف القدماء فى ورود الترادف اختلفوا أيضاً فى ورود المشترك اللفظى ، وذلك لأن كل فريق قد نظر إلى الـكلمات ومعانيها من زاوية خاصة . فالذين تأولوا أمثلة المشترك اللفظى على أنها كلها من الحقيقه والمجاز ، قد نظروا إليها نظرة تاريخية ، وتتبعوها فى عصورها المختلفة ، وتلك هى الطريقة التى سميناها آنفاً Diachronic . أما الآخرون فنظرتهم وصفية واقعية ، إذ بحثوا فى الـكلمات ومعانيها فى عصر خاص ، وتلك هى النظرة التى سميناها Synchronic .

وليس الأمر من البساطة بالقدر الذى تصوره القدماء من علماء اللغة ، إذ قد وقع المشترك اللفظى فى كل لغة ، وقد دعت عوامل متعددة لوقوعه . فكما تتطور أصوات الـكلمات وتتغير ، قد تتطور معانيها وتتغـير ، مع احتفاظها بأصواتها . وتطور المعانى وتغيرها مع الاحتفاظ بالأصوات ، هو الذى ينتج لنا كلمات اشتركت فى الصورة واختلفت فى المعنى .

ولعل أهم عامل فى تغير المعنى هو الاستعمال المجازى ، وليس من الضرورى أن يكون الاستعمال المجازى مقصوداً متعمداً ، كما نلحظه فى بعض الأساليب الشعرية والـكتابية ، بل قد يقع من عـدة أفراد فى البيئة اللغوية فى وقت

واحد ، ودون مواضعة أو اتفاق بينهم . فالناس فى لغة تخاطبهم قد يلجأون إلى مجازات لتوضيح معانيهم وإبرازها فى صورة جلية ، دون أن يعمدوا إلى هذا عمداً ، أو يرغبوا فى إظهار براعة فى الكلام . فكما تعودوا أن يقولوا رأس الإنسان ، قد يقولون أيضاً رأس الجبل ورأس النخلة ثم أخيراً رأس الحكمة ! ولا يعنون بكلمة (رأس) فى كل استعمال من هذه الاستعمالات ، سوى الجزء الأعلى البارز من كل شىء ، و إن اختلفت هذه الأجزاء فى تفاصيلها . ونحن فى فهمنا لمعانى الأشياء لا نتطلب الدقائق والتفاصيل فيها ، بل نكتفى عادة بفكرة سريعة ذات ارتباط بتجاربنا السالفة . فحين نسمع للمرة الأولى استعمالا مثل [رأس الجبل] لا نحاول تحليله إلى دقائقه ، وإنما نربطه ربطاً سريعاً بتجاربنا السابقة التى منها فهمنا أن رأس الانسان هو أعلى جزء فيه وأبرزه ، فنقبل هذا الاستعمال الجديد متى كان يمت بعلاقة ما لاستعمال قديم ، وهكذا تنتقل معانى الكلمات من محيط إلى آخر . وقد يكون الاستعمال الجديد من عمل فرد ممتاز فى البيئة اللغوية كشاعر أو كاتب ، كما قد يكون من عمل مجموعة من الناس دون مواضعة أو اتفاق بينهم . وانتقال المعانى من محيط إلى محيط آخر هو الذى اصطلح على تسميته بالمجازات . على أن المجازات تخضع عادة للذوق العام . فإذا أسرف الشاعر فى مجازاته ، أو غالى فيها أو بعد بها عن بيئته لم يقبلها الذوق العام ، ولا تلبث أن تموت . وحين تمر الأيام على تلك المجازات ، ويكثر استعمالها ؛ لا تلبث أن تنسى الناحية المجازية فيها ، وتصبح معانيها حقيقية . والبحث عن تلك المجازات المنسية أمر ليس باليسير ، لأنه يتطلب التوغل فى العصور التاريخية للبحث عن نصوص قديمة فيها استعملت

الـكلمات بشكل مجازى واضح ؛ أو يتطلب البحث فى تاريخ الحياة الاجتماعية لأمة من الأمم لنستطيع الوصول إلى أن المعنى الذى يبدو لنا الآن حقيقياً ، كان فى بدء استعماله مجازياً ، لما كانت عليه تلك الأمة من تقاليد كذا وكذا . وكل تغير فى الحياة الاجتماعية يستتبع تغيراً فى معانى بعض الـكلمات التى قد تحتفظ بصورتها ، وينشأ من هذا ما نسميه بالمشترك اللفظى . فمثلا الـكلمة التى تعبر فى كل اللغات الأوربية عن [الـكهرباء] قد اشتقت من كلمة أغريقية قديمة كانت تعنى ذلك الحجر المسمى بالـكهرمان ؛ وذلك لأن الـكهرمان كان معروفا منذ القدم بأنه يجذب بعض المواد الصغيرة بعد حكه . ولسنا الآن نشك فى أن الـكلمتين : كهرباء ، كهرمان من أصل إغريقى واحد ، رغم أنهما عربتا بصورتين مختلفتين بعض الاختلاف يسهل ارجاعهما إلى ذلك الأصل بسهولة .

المعانى إذن لا تبقى على حال واحدة بل هى دائمة التغير ، وإن كان تغيرها بطيئاً ، يمر فى أجيال قبل أن نشعر به أو نتعرف عليه . وكما يصيب التغير بعض الأصوات دون البعض الآخر ، كذلك نرى تغير المعانى مقصوراً على بعضها دون البعض الآخر . وذلك لتلك الظروف اللغوية الخاصة التى قد تطرأ على بعض الـكلمات فقط . وكما قد تحافظ بعض الـكلمات على أصواتها ولفظها ، كذلك قد تحافظ بعض الـكلمات على معانيها .

أما أهم العوامل التى تسبب تغير المعانى فيمكن أن نلخصها فيما يلى :

١ — الانتقال من الحقيقة إلى المجاز : وهـذا هو أهم العوامل ، وإليه يمكن أن يعزى معظم اختلافات المعانى وتغيرها .

والمجازات قد تكون من عمل الأفراد الموهوبين فى شعر أو نثر ، كما قد

تكون من عمل جماعة من الناس فى البيئه اللغوية . ومجازات الشعراء والكتاب حين يعمدون إليها فى أساليبهم للمرة الأولى ، تصدر منهم عمداً ، ولغاية خاصة ، أما المجازات الأخرى فإنما يدعو إليها تغير فى الحياة الاجتماعية أو تقدم فى الحياة العقلية : وهنا ينتقل المعنى الحسى إلى مجال المعنويات .

ب — سوء فهم المعنى : قد يسيء الطفل فهم معنى الكلمة فى البيئة المنعزلة التى لا استقرار فيها ، ثم ينشأ هذا الطفل دون أن يصلح له ما فهم ، فتراه يستعمل الكلمات فى معنى جديد ، إن لم يكن مخالفاً للمعنى الأول كل المخالفة ؛ فلا أقل من أن نرى بين المعنيين بعض الاختلاف . فتغير المعانى قد يكون من أخطاء الأطفال .

وليس من السهل التمييز بين الكلمات التى اختلفت معانيها بسبب استعمال مجازى ، و بين تلك التى تعددت معانيها بسبب أخطاء الأطفال ، على أنه يمكن بوجه عام أن ننسب تغير المعانى فى كلة من الكلمات إلى عبث الأطفال حين لا نلحظ علاقة واضحة بين المعنى القديم والمعنى الجديد . . وحكمنا فى مثل هذه الحالة مرجح لا مؤكد ؛ لأن بعض المجازات المنسية قد نشأت فى ظروف لغوية خاصة ، ومضى عليها زمن طويل فأصبح من الصعب الكشف عنها .

ج — قد تستعير اللغة كلات تماثل صورتها كلات أخرى فيها ، و إن اختلف معناها . وهنا قد نرى كلتين متحدتين فى الصورة ، مختلفتين فى المعنى ولكن كلا منهما ينتمى فى الأصل إلى لغة مستقلة . ومثل هذا النوع من الكلمات نادر وهو وليد المصادفة ، ولكنه قد يولد لنا المشترك اللفظى .

د — قد يتغير معنى الكلمة فى لهجة من اللهجات ؛ ثم يمر زمن طويل

حلا له ينسى المعنى الأصلي ، وتلتزم تلك اللهجة استعمال هذه الكلمة فى معناها الجديد دون سواه ، وهنا نرى لهجات اللغة الواحدة تستعمل كلمات متحدة الصورة فى معان مختلفة . ويظهر أن هذه الظاهرة قد لعبت دوراً هاماً فى اللهجات العربية إذ تغيرت معانى بعض الكلمات فى بعض اللهجات دون البعض الآخر لظروف لغوية خاصة . فلما جمعت اللغة خيل لجامعيها أن إحدى القبائل تستعمل هذه الكلمة فى معنى من هذه المعانى ، فى حين أن قبيلة أخرى تستعملها فى معنى آخر . والحقيقة أن معنى هذه الكلمة قد تغير فى لهجة من اللهجات دون أن يطرأ عليه أى تغير فى اللهجة الأخرى .

هـ — هناك كلمات كانت تستعمل فى الأصل مختلفة الصورة والمعنى ، ثم تطورت صورة بعض منها حتى ماثلت البعض الآخر ، وهكذا رويت لنا متحدة الصورة مختلفة المعنى . فاشتراك الصورة فى مثل هذه الكلمات لم ينشأ عن اشتراكها فى المعنى الأصلي ، وإنما نشأ عن تغير فى أصوات بعضها ، ترتب عليه مماثلة فى اللفظ ، واختلاف أصلي فى المعنى .

ونحن حين نستعرض أمثلة المشترك اللفظى ، كما رويت لنا فى المعاجم العربية ، ونحاول إرجاعها إلى العوامل المتقدمة ، نراها من الكثرة والاضطراب فى روايتها ، بحيث تعيي الباحث المدقق عن الحكم عليها حكماً قاطعاً . وكيف يمكن القطع فيها برأى مع جهلنا بالحياة العربية قبل الإسلام . هذا إلى أن تلك الكلمات مرت فى أحقاب بعيدة ، وفى ظروف اجتماعية مجهولة ، قبل أن تروى لنا على هذه الصورة التى نشهدها فى المعاجم . وكل الذى نستطيع تأكيده بصددها ، أن معانيها قد تغيرت مع احتفاظها بصورتها ، أو أن صورتها قد تغيرت

مع الاحتفاظ بمعانيها . أما سبب التغير فأمر أقرب إلى الترجيح منه إلى مرتبة اليقين .

وليس هناك ما نستدل به على تغير المعانى فى بعض الكلمات خير من تلك الأخطاء الإنشائية الشائعة بين تلاميذنا ، وفى بعض صحفنا حين تستعمل بعض الكلمات فى معان لم ترد فى المعاجم .

وكلنا يعلم أن مدرس اللغة العربية فى صراع مستمر مع تلك المعاني الجديدة لكلمات قديمة ، ينكرها حيناً و يقبلها حيناً آخر ؛ دون أن يعلم الظروف التى أدت إلى مثل هذا التغير فى المعنى . فقليل من التلاميذ من يستعملون كلمة مثل (العتيد) أو (عيال) فى معناها الذى روته المعاجم . وقد اشتملت لغة كلامنا على كلمات كثيرة عربية الأصل ، احتفظت بصورتها فقط ، دون معناها الأصلى .

بقى أن نلقى نظرة سريعة فى بطون المعاجم اللغوية لنلتقط منها بعض الأمثلة العربية التى توضح لنا اضطراب الرواية فى معانى الكلمات ، وصعوبة الكشف عن العلاقة بينها :

١ — فالليث من معانيه : الأسد . وضرب من العنكبوت . واللسن البليغ ! ! فكيف عبرت هذه الكلمة عن كل هذه المعانى ، وما هى الظروف اللغوية التى ترتب عليها مثل هذا الاختلاف ؟ ؟

٢ — وما العلاقة بين المعانى التى رويت لكلمة الفخت : ضوء القمر ، نشل الطباخ القدرة من القدرة ، ثقوب مستديرة فى السقف ! ؟

٣ — وكيف عبر بكلمة (البلد) عن :

مكة ، كل قطعة من الأرض مستحيرة عامرة ، التراب ، القبر ، الدار ، الأثر ! ؟

٤ — وكيف التقت المعانى الآتية فى كلمة النجم ؟

الكوكب ، نبات نجم على غير ساق ، الوقت المضروب والأصل أخ !

غير أننا نلحظ العلاقة واضحة جلية بين معانى بعض الكلمات مثل :

١ — الجبل : ما علا من الأرض ، سيد القوم ، عالمهم .

٢ — التفاحتان : رءوس الفخذين فى الوركين .

٣ — العنبة : بثرة تخرج بالانسان .

والذى نلحظه بصفة عامة ، أن كثيراً من الكلمات التى تسمى بالمشترك اللفظى تجمع بين معنيين ، أحدهما حسى والآخر معنوي ، ولا شك أن المعنى الأصلى فى مثل هذه الحالة هو الحسي ، وأن المعنوى فرع عنه بطريق المجاز .

وقد عنى الزمخشرى فى معجمه أساس البلاغة بتبيان المعانى الحقيقية والمجازية للكلمات ، ولكنه لم يوفق فى كل حالة ، فقد ضل الطريق حين حاول اشتقاق معنى حسى ، من آخر معنوى ، مع أن الذى أجمع عليه المحدثون من علماء اللغات ، هو أن المعانى الحسية أسبق فى الوجود ، وأجدر بأن تعدّ المعانى الحقيقية ، وغيرها فروع لها عن طريق المجاز . وقد وقع فى نفس الزلل بعض الرواة المشهورين مثل : أبى عمرو بن العلاء حين روى قصة اشتقاق الخيل من الخيلاء ، وقال لصاحبه مؤيداً هذا الزعم ألا تراه يمشى العِرَضْنة ؟

وليت شعرى كيف يمكن هذا مع أن الناس قد عرفوا الخيل قبل أن يعرفوا الخيلاء ! فاذا صح أن هناك علاقة بين الخيل والخيلاء ، فالأولى أن يقال إن الخيلاء من الخيل لا العكس .

ولا بأس هنا من أن نورد بعض الأمثلة التى وردت فى أساس البلاغة ، لنؤيد ما نذهب إليه من أن المعانى الحسية ، أسبق فى الوجود ، وأنها مصدر الاشتقاق لغيرها من الكلمات .

١ — الجبن من الجبانة . والجبان أي الصحراء .

٢ — جثم الطائر مشتق من الجثمان .

٣ — دبج بمعنى زين مشتق من الديباج .

٤ — جدثوه غيبوه فى الجدث .

٥ — خيم الظلام من الخيمة .

ولهذا لا نتجني على اللغة حين نرجح أن معظم المعنويات التى لا ندرك لها مصدر اشتقاق ، والتى تبدو لأول وهلة حقيقية المعانى ، ليست فى الحقيقة إلا مجازات منسية .

على أن البحث والتنقيب يوقفنا فى معظم الأحيان على المعانى الحقيقية الأصلية لتلك المعنويات . فانظر مثلا :

١ — الرطانة وهى العجمة فى النطق قد اشتقت أصلا من معنى حسى هو : إذا كثرت الأبل وكانت رفاقا ومعها أهلها فتسمى الرطانة . والعلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى الفرعي هى الجلبة مع الإبهام .

٢ — وكذلك البطلان التى منها الباطل ضد الحق جاءت من كلمة الباطل بمعني ابليس . وقد ورد المعنى الأصلي فى القرآن الكريم (وما يبدىء الباطل وما يعيد) .

٣ — الطمع فى الأصل معناه رزق الجند

٤ — السفاهة فى الأصل من سفهت الطعنة أسرع منها الدم وجف .

ولـكن حين يسائل المرء نفسه عن المعانى الأصلية للجوع والعطش والرعب والفرح ، لا يكاد يعثر على معان حسية تعدّ مصدر الاشتقاق لها . ولعلّ هذا لأن مثل تلك المعنويات قديمة بعيدة فى القدم ، ولا سبيل إلى التوغل فى تاريخ الإنسان لنعرف كيف عرف الجوع والعطش ، أو الخوف والفرح أول الأمر ، وكيف بدأ يشتق كلمات تعبر عنها ؟

وقد يكون من العبث أن نسرف هنا فى ذكر أمثلة لما يسمى بالمشترك اللفظى ، لأن المعاجم العربية قد ملئت بها ، ومن اليسير الوصول إليها بمجرد الـكشف فى القواميس ، ومن اليسير أيضا إرجاع تلك الأمثلة التى يعثر عليها إلى عامل من العوامل الآنفة الذكر .

غير أنا سنعنى هنا بالعامل الأخير من عوامل المشترك اللفظى ، لأن القدماء لم يشيروا إليه ، أولم يفطنوا لإمكان حدوثه ، وهو أن بعض الـكلمات لم تشترك فى اللفظ إلا بعد تطور فى أصوات بعضها ، وأن هذا الاشتراك فى اللفظ لم يكن فى الحقيقة إلا وليد المصادفة . فانظر مثلا إلى الـكلمات الآتية :

١ — روت المعاجم أن [التغَب] لها معنيان غير ظاهرى العلاقة ، وهما الوسخ والدرن ، والقحط والجوع . ثم فى موضع آخر نجد أن « السغَب » معناه الجوع !

ويظهر أن كلمة « السغَب » قد تطورت فى لهجة من اللهجات ، ولظرف من الظروف الخاصة ، حتى أصبحت [التغب] من المشترك اللفظى . وقد يستأنس لهذا الرأى بما روى عن بعض قبائل اليمن من ميلها إلى قلب السين تاء ، فيقولون (النات) بدلا من [الناس] . فلعل كلمة (السغب) قد نطق بها فى القبائل

اليمنية (التغب) ، مع احتفاظها بمعناها وهو الجوع ، ثم جاء جامعو المعاجم ونسبوا معنيين مختلفين لكلمة (التغب) ، وعدوها من المشترك اللفظي .

٢ — حربه حرَبا سلبه ماله . حرِب حربا اشتد غضبه ، وعلى هذا فكلمة (الحرَب) من المشترك اللفظى فى رأى أصحاب القواميس !

والحقيقة أن المعنى الأول لهذه الكلمة هو نفس معنى الفعل [حرمه] فلما قلبت الميم «باء» فى لهجة من اللهجات العربية كلهجة مازن مثلا ، التبس الفعل (حرمه) بمعنى سلبه ، بالفعل حرِب بمعنى اشتد غضبه .

٣ — « قطب » زوى ما بين عينيه وكلح كقطّب ، والشىء قطعه ! فهل نلحظ علاقة ما بين التقطيب فى الوجه وقطع الشىء ؟ اللهم لا ! على أن أصحاب المعاجم قد عدوا هذا من المشترك اللفظى ، ولو أنهم رجعوا إلى الفعل (قطم) لرأوه بمعنى قطع ، ولما قلبت الميم منه إلى « باء » ، ظهر لهم فعل ظنوه جديدا وهو (قطب) بمعنى قطع ، ونسبوا له الاشتراك اللفظى .

٤ — جاء فى مادة [سحب] أن لهذا الفعل معنيين هما :

(ا) جرّه على وجه الأرض

(ب) أكل وشرب أكلا شديداً

فهل هناك علاقة ظاهرة بين المعنيين بحيث نقول إن أحدهما فرع من الآخر ؟ أليس الأصوب أن نبحث عن المعنى الثانى فى مادة (زعَب) التى فيها (تزعّب) فى أكله وشربه أكثر ، فلما همست الزاى والعين أصبحتا سينا وحاء ؟

وهكذا التبس لفظ الفعلين ، وحسب القدماء الفعل (سحب) من المشترك اللفظى .

٥ — وقد خلطت المعاجم بين مادتى (لزب) و (لسب) فنسبت لكل منهما معنيين هما : اللصوق ولدغ العقرب أو الحية : فقد جاء فى قاموس المحيط اللزوب : اللصوق . لزبته العقرب لدغته . لسب به لصق . لسبته الحية لدغته !! وكان الأولى أن ينسب أحد المعنيين إلى المادة الأولى ، والمعنى الثانى إلى المادة الأخرى . ولكن التطور الصوتى فى إحدى المادتين وذلك بهمس الزاى لتصبح سينا ، أو بجهر السين لتصبح زايا ، قد أوقع القدماء فى اللبس ، وجعلهم يخلطون بين معنيين بعيدى العلاقة .

٦ — أليس من الإسراف والمغالاة أن نجارى المعاجم العربية فنقول إن مادة (نسب) من المشترك اللفظى لأن من معانيها : نسبه ذكر نسبه ، وأنسبت الريح اشتدت ؟ فى حين أننا نرى فى موضع آخر [أنشبت الريح اشتدت] ! أوليس الأقرب إلى الصواب أن نقول إن التطور الصوتى فى الفعل (أنشبت الريح) ، قد أدي إلى قلب الشين سينا ، فالتبس الأمر على جامعى اللغة ؟

٧ — الخبت : المتسع من بطون الأرض ، والخبيت الحقير ! هذا هو ما رواه صاحب قاموس المحيط . ولعمرى كيف استباح لنفسه أن ينسب لهذه الكلمة شيئا من ظاهرة الاشتراك اللفظى مع وجود كلمة (الخبيث) بالثاء وشهرتها ، واحتمال قلب الثاء إلى التاء مما أدى إلى اللبس بين المادتين .

٨ — المحت : الشديد ، اليوم الحار ، والخالص !

قد يعدّ بعض الناس مثل هذه الكلمة من المشترك اللفظى دون علاقة واضحة بين هذه المعانى ، فى حين أننا نعلم أن كلمة (البحت) معناها الخالص ، وأن قلب

الباء منها إلى ميم ، قد أدى إلى نسبة معنى الخالص إلى (البحْت) ، مع مالها من معان أخرى :

٩ — فحث عنه كنع فحص ، والفحث حيــة عظيمة لا تؤذى !

فليت شعرى ما العلاقة بين هاذين المعنيين حتى نجعلهما من مشتقات مادة واحده ؟

أليس الأجدر أن نقول إن المعنى الأول متفرع عن الفعل (بحث عنه) ؟ فلما قلبت الباء إلى الفاء ، وكلاهما من الأصوات الشفوية ، أدى هذا إلى اللبس بين المادتين ؟

تلك هى أمثلة قليلة ، أردنا أن نوردها لتوضيح ما نعنى من أن ظاهرة الاشتراك اللفظى ، قد تــكون فى بعض الأحيان نتيجة تطور صوتى فى بعض الــكلمات .

ولا شك أن الباحث فى بطون المعاجم العربية سيعثر على مئات من أمثال تلك التى أوردناها هنا .

— ٤ —

التضــاد

لا يتم الحديث عن المشترك اللفظى إلا بالتعرض لتلك الكلمات التى رويت لنا مضادة المعانى ، والتى اصطلح القدماء على تسميتها بالأضداد . وأشهر من عنى بتلك الكلمات وجمعها بين مؤلفى العرب ، هو ابن الأنبارى فى كتاب له سماه الأضداد ، أحصى فيه ما ينيف على أربعمائة كلمة ، ولــكنه تعسف فى اختياره ،

وتأول كثيراً من معانى الكلمات . أما ابن سيده والسيوطى فقد اعتدلا فى اختيار الأضداد ، ولم يسرفا فى تلمس العلاقة بين الكلمات ، فجاء ما أحصياه نحواً من مائة كلمة .

والضدية نوع من العلاقة بين المعانى ، بل ربما كانت أقرب إلى الذهن من أية علاقة أخرى . فمجرد ذكر معنى من المعانى ، يدعو ضد هذا المعنى إلى الذهن ، ولا سيما بين الألوان . فذكر البياض يستحضر فى الذهن السواد . فعلاقة الضدية من أوضح الأشياء فى تداعى المعانى . فإذا جاز أن تعبر الكلمة الواحدة عن معنيين بينهما علاقة ما ، فمن باب أولى جواز تعبيرها عن معنيين متضادين ، لأن استحضار أحدهما فى الذهن يستتبع عادة استحضار الآخر . فالتضاد فرع من المشترك اللفظى ، وعوامل تكوّن المشترك اللفظى فى اللغات وقد أشرنا إليها آنفاً ، هى عوامل تكوّن الأضداد . غير أنه من الممكن أن يضاف إليها ما يأتى :

(١) التطير :

إن غريزة التفاؤل والتشاؤم من غرائز الإنسان التى تسيطر على عاداته فى التعبير إلى حد كبير . فإذا شاء المرء التعبير عن معنى سيء ، تشاءم من ذكر الكلمة الخاصة به ، وفر منها إلى غيرها . فجميع الكلمات التى تعبر عن الموت والأمراض ، والمصائب والكوارث ، يفر منها الإنسان ، ويكنى عنها بكلمات حسنة المعنى ، قريبة إلى الخير . وأوضح ما تكون هذه الغريزة بين النساء وفى الأوساط التى نالت حظاً ضئيلا من الثقافة وأقرب المعانى إلى كلمات التشاؤم ،

هي أضدادها من كلمات التفاؤل. لهذا عبّر في اللغة العربية عن الأسود بالأبيض تجنباً لذكر لفظ السواد، وعبّر عن المكان المخوف بالخاطر، بالمفازة.

ولا تختص بهذا قبيلة دون أخرى، بل قد يجوز أن تعبر اللهجة الواحدة بلفظ واحد أساسه الخير، عن الخير والشر. ويتوقف الأمر على قوة غريزة التطيّر بين أفراد القبيلة، وما أصابوه من ثقافة.

(ب) التهكم :

ويلحظ هذا بصفة خاصة بين الشباب، فهم لرغبتهم في الخروج عن القواعد المألوفة في التعبير، وحبهم للتجديد في الكلام، وإظهار مهارتهم في تخيّر الكلمات، يلجأون أحياناً إلى التعبير عن الشيء بكلمة مضادة هازئين ساخرين. ويغلب أن يكون هذا النوع من التعبير بين الخاصة من الناس، القادرين على التفنن في القول، وهو على كل حال يؤدي آخر الأمر إلى وقوع كلمات متضادة المعنى.

ويعزى إلى هذه الظاهرة، وقوع كلمات متضادة مثل (القشيب) التي تعبر عن «الجديد» في غالب الأحيان، وعن «الخلَق» في القليل من الأحيان، ومثل «جلل» التي تعبر عن الكبير والصغير، ومثل يا «عاقل» التي قد تقال للمجنون، وكلمة «سليم» التي قد تقال للملدوغ، وكذلك «لمقت» الشيء بمعنى كتبته في لهجة عقيل، وبمعنى محوته عند قبائل قيس.

حـ) الإبهام في المعنى الأصلي وعمومه :

قد يؤدي إلى التضاد أن المعنى الأصلي للكلمة يكون عاماً غير محدود، ثم

يتحدد معناه مع الزمن ، ولكن فى تطوره وتحدد معناه يتخذ طريقين متضادين ، ويترتب على هذا أن نجد الكلمة الواحدة يتخصص معناها فى لهجة من اللهجات بشكل خاص يضاد الشكل الذى اتخذته الكلمة فى لهجة أخرى . وخير مثل لهذا قصة الملك الذى قال للأعرابى « ثبْ » يريد اجلس ، فوثب الأعرابى ودق عنقه ، لأنه لم يكن يعرف معنى « لوثب » إلا طفر .

فالتضاد هنا بين معنى وثب فى لهجة أهل الشمال ، ومعناها فى لهجة حمير ، نشأ عن تحدد المعنى وتخصصه بشكل خاص فى كل لهجة . والكلمة العبرية التى تناظر الفعل (وثب) هى « يشب » ، وليس لها إلا معنى واحد ، وهو جلس أو أقام ،فلعل المعنى العام الذى كانت تدل عليه هذه الكلمة فى اللغات السامية ، هو الانتقال من حال إلى حال ، وتغير الوضع .

وقد تخصص هذا المعنى العام فى اللهجات الشمالية فأصبح يعبر عن القفز ، فى حين أنه أصبح يعبر عن الجلوس فى غيرها من اللهجات .

ولعل كلمة « السدفة » التى روى أنها كانت تعبر عن الظلمة فى لهجة تميم ، وعن الضوء بين قبائل قيس ، كانت شيئاً من هذا . فقد كان معناها العام ان تعبر عن حالة بين الظلمة والنور ، ثم تحدد معناها فى تلك اللهجات فأدى إلى التضاد .

هذا ولا ننسى أن للمصادفة دخلا فى تكوّن بعض الأضداد . فقد يترتب على التطور الصوتى فى كلمة ما ، أن تصبح مماثلة فى لفظها لكلمة أخرى مضادة فى المعنى . فكلمة (الجون) التى تعبر عن الأبيض ، قد انحدرت من أصلين لا علاقة بينهما ، إذ يظهر أن (الجون) التى تعبر عن السواد ، قد اشتقت أولا من الفعل (جنّ) بمعنى ستر ، والذى يستعمل فى مثل (جنّ الليل)

أى أظلم ، فهذه المادة تعبر أساساً عن معنى الظلمة ، ثم تطورت أصواتها بتأثير عامل المخالفة « Dissimilation »، فقلب أحد النونين إلى صوت مشابهه وهو الواو[١].

وبذلك التبس الجون المنحدر من مادة « جنّ » ، بالجون التى تعبر أصلا عن النور .

وانظر أيضاً إلى كلمة (أكتَ) التى روت المعاجم أنها تعبر عن معنيين متضادين هما : انطلق مسرعاً ، وقعد !

ويظهر أن تطور الفعل « قعد » فى أصواته بأن انتقل مخرج القاف إلى الأمام قليلا ، فصادف مخرج الكاف ، وبأن همست الدال فأصبحت تاء ، كل هذا أدى إلى أن صار الفعل (قعد) (كت) ، دون تغير فى معناه ، ثم التبس هذا الفعل بفعل آخر من أصل مختلف وهو (أكت) بمعنى انطلق مسرعاً[٢].

نكتفى بهذا القدر فى الحديث عن الأضداد ، لأن ماروى عنها من الشواهد يعوز أكثره النصوص الصريحة القوية . وقد حلل بعض المحدثين أمثلة التضاد فى اللغة العربية ، واستعرضها جميعاً ، ثم حذف منها مايدل على التكلف والتعسف فى اختيارها ، واتضح بعد بحث دقيق ، وعناية بمقارنة هذه الكلمات ومعانيها ، أن ليس بينها ما يفيد التضاد بمعناه العلمى إلا نحو عشرين كلمة فى كل اللغة . ومثل هذا المقدار الضئيل من كلمات اللغة لا يستحق عناية أكثر من هذا ، ولا سيا وأن مصير كلمات التضاد إلى الانقراض من اللغة ، بأن تشتهر بمعنى واحد من المعنيين مع مرور الزمن .

(١) انظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١٧١ .

(٢) انظر مقالا مسهباً عن الأضداد لسعادة الدكتور منصور فهمى باشا صفحة ٢٠٨ الجزء الثانى من مجلة المجمع اللغوى الملكى .

الفصل السادس

اللهجات الحديثة

تحدثنا فى مقدمة هذا الكتاب عن أهمية اللهجات الحديثة ، فى دراسة اللهجات القديمة . وسنعرض هنا طرفاً من خصائص اللهجات المصرية ، ولا سيما اللهجة النموذجية فيها ، وهى اللهجة القاهرية ، موضحين بعض ما احتفظت به هذه اللهجات الحديثة من صفات قديمة ، وما تطور فيها من صفات خاصة ، نمت واستقلت مع الزمن . وسنقتصر فى هذه الإشارة العابرة على بعض التطورات الصوتية فى هذه اللهجة ، وعلى تطور معانى بعض الكلمات . ولسنا نطمع من هذا الفصل إلا فى أن نوضح ما يمكن أن تكشف عنه دراسة اللهجات الحديثة ؛ فلعل فى مراحل تطورها ما يلقى ضوءاً على ما غمض من تطورات اللهجات القديمة وخصائصها .

— ١ —

الناحية الصوتية

(١) فقدت معظم اللهجات المصرية بعض الأصوات العربية القديمة ، أمثال : الثاء ، والذال ، والظاء ، والقاف . واستبدلت بها على الترتيب ، التاء ،

والدال ، والضاد ، والهمزة ، أو الجيم . وقد اطرد هذا اطراداً يدعو إلى الدهشة في كل الكلمات . والذى يلحظ فى هذا التغير بصفة عامة ، هو الانتقال ببعض الأصوات الرخوة القليلة الشيوع فى اللغة الفصيحة ، إلى نظائرها من أصوات الشدة .

(ب) مالت الأصوات المطبقة إلى الاستفال فى لغة الكلام المصرية فى معظم الأحيان ، إذ نلحظ أن المصريين بصفة عامة ، ينطقون الصّاد سيناً ، والطاء تاء ، والضاد دالا ، والظاء زاياً ، وهكذا مثل :

صقع : « سكع فلاناً قلماً » . (غضر عنه) : « غدر على البيعة » أى انصرف . « لدعه قلماً » جاءت من اللطح . مدغ : مضغ .

والذى نستطيع أن نؤكده بصدد هاتين الظاهرتين ، أنهما من التطورات الحديثة التى تمت بعد انتشار اللغة العربية فى بيئات مختلفة نائية ؛ بل ربما تم بعضها فى العصور الإسلامية الأولى .

لهذا نترك البحث فى علة هذا التطور لدراسة أوفى فى اللهجة المصرية ونكتفى هنا باستعراض تلك التطورات التى تمت فى عصور أحدث ، والتى كونت صفات خاصة باللهجة المصرية ، تميزها عن غيرها من اللهجات الحديثة ، وتلك هى الصفات التى تكونت بعد مرور أجيال كثيرة على اللغة العربية فى البيئة المصرية ؛ وحين أصبح للبيئة المصرية كيان مستقل . فقد جاء زمن على لهجة الكلام بمصر ، تركت فيه دون نظر فيها أو عناية بها ، يتحدث بها الناس فى حديثهم العادى ، وفى خطابهم العام ، دون تدوين لها أو تسجيل لما يعرض لها من تغير أو تطور . وقد صرفت اللغة الفصحى أنظار الناس عن لغة كلامهم ، فلم يعنوا

بما عرض لها من تطور مع الزمن ، ولهذا اتخذت فى الأفواه أشكالا وصوراً تباينت باختلاف الأجيال والعصور ، والناس لا يشعرون ولا يلحظون تلك الفروق ، وإنما وجهوا كل عنايتهم إلى الكتابة ، وهى اللغة الفصحى ، فإذا انحرف الطفل فى الكلام بلهجة أبيه ، لم يجد من يعنى بتصحيح هذا الانحراف ، والإبقاء على صورة خاصة فى الكلام . فأخذت اللهجة مجراها الطبيعى ، وتغيرت جيلا بعد جيل ، وقد أدى كل هذا إلى ما نلحظه من فروق خطيرة بين لهجة الكلام واللغة الفصحى . واتسع لهذا ، البون بين لهجة الحديث و بين لغة الكتابة ، مما لا نظير له فى أية لغة من لغات العالم . فلم تجد اللهجة المصرية رقيباً عليها أو حسيباً ، فانسابت خفية عن الأنظار تتغير فى أفواه الناس ، دون أن يلفت هذا نظر أحد ، وقد ساعد هذا التطور الخطير أنها لم تكتب ولم تسجل ، لأن الكتابة فى بعض الأحيان من عوامل استقرار اللغات ، ومنعها من أن تقع نهباً لعوامل التطور اللغوى ، تفعل بها ما تشاء ، وهـذا هو السر فيما نلحظه من أن التغييرات فى اللهجة المصرية ، يمكن أن تعزى فى غالب الأحيان إلى أخطاء كلامية بين الناشئين ، تركت دون إصلاح ، أولفت نظر ، فتراكمت و بعدت عن الأصل ، بحيث أصبح من العسير إرجاعها إلى ذلك الأصل إلا بجهد ومشقة . فنحن الآن ننكر كثيرا من كلمات اللهجة المصرية ، غير مدركين أن لها أصلا عربيا صحيحاً ، وأنها تطورت فى الأفواه دون عناية بإصلاحها من بادىء الأمر . إذ اتجهت كل العناية إلى لغة الكتابة ، وكان المشتغلون بها قليلين جداً ، وتركت الكثرة الغالبة من الناس يتخبطون فى حديثهم ، فتنتقل الكلمات من صورة إلى أخرى دون أن تستقر على حال ، كل ينطق كما يهوى ، ويقيس ما لم يعرف

على ما عرف ، وتتوارث الأجيال أخطاء من سبقوهم .

فانظر مثلا إلى كلمة مثل « ألثغ » التى تطورت فيها الثاء أولا إلى تاء كمعظم الثاءات وصارت (ألتغ) فى عصر من العصور ، وأخيراً جهر بهذه التاء فأصبحت دالا ، وصارت الكلمة على الصورة التى نألفها الآن وهى (ألدغ) .

نشير بعد هذا إلى أهم الاتجاهات الصوتية فى لهجة الكلام المصرى ، فنلخصها فى العناصر الآتية :

١ — الميل إلى همس كثير من الأصوات ، وهو أمر طبيعى فى بيئة مستقرة كالبيئة المصرية ذات الحضارة منذ القدم[1] .

فانظر مثلا إلى كلمة مثل (اتكرّع) ، التى لا نشك فى أنها انحدرت من (تجرع) ، بعد أن همست الجيم فأصبحت كافاً . ومثل « دهس » التى أصلها من « الدعْس » وهو شدة الوطء . ومثل (شحت) التى أصلها من « شحذ » ، فمرت فى مرحلتين قبل أن تصل إلى الصورة التى نعهدها — إذ قلبت أولا الذال ككل الذالات إلى دال ، وأتى عليها عهد فى لهجة الكلام كانت « شحد » ثم همست الدال فأصبحت (تاء) . ومثل (نكش) التى نرجح أنها من (نجش) الصيد أو كل شيء مخبوء بمعنى استثاره . وهكذا نجد كلمات كثيرة قد همست بعض أصواتها فى لهجة الكلام . على أننا فى القليل من الأحيان نلحظ فى اللهجة المصرية عكس هذه الظاهرة مثل (اتْعتع) التى هي من (التحتحة) بمعنى الحركة . ومثل (غفير) التى هى فى الأصل (خفير) وهكذا فى هذه الكلمات نجد اللهجة المصرية قد جهرت فى بعض الأصوات المهموسة فى الكلمات العربية الفصيحة .

---

(١) أنظر صفحة ٧٠ .

ويظهر أن هذا النوع من التطور قد جاء إلى اللهجة المصرية مع بعض النازحين إليها من البدو الذين يميلون إلى جهر الأصوات ، أو أن بعض الطبقات من الناس فى مصر كانوا أميل إلى صفات البداوة وإلى البعد عن الحضارة كأوساط عوام المدن ورعاعها .

٢ — أخطاء تبدأ مع الأطفال والناشئين ، ثم تنمو بينهم وتكون جزءاً من لهجاتهم وهم كبار ، ثم يورثونها من بعدهم . وربما كان هذا العنصر أوضح العناصر فى تطور الكلمات وأصواتها فى اللهجة المصرية[١] :

(ا) فهناك كلمات قلبت فيها الباء ميما مثل (تبختر) ، أصبحت فى لهجة الكلام (اتمختر) ، وهناك العكس من هذا مثل (متاع) صارت تلك الكلمة الشائعة (بتاع) ، ومثل (حملق) صارت (بحلق) مع تغيير فى ترتيب الأصوات ، ومثل (خمش) التى جاءت منها (خربش) بعد زيادة الراء .

وهناك كلمات قلبت فيها (الفاء) إلى (باء) فى لهجة الكلام ، مثل (سفط) التى صارت (سبت) ، ومثل (قف شعره) نقولها الآن فى الكلام (قب شعره) ، ومثل (فرطش) التى تستعمل فى الفصحى بمعنى (فرطش الجمل) أى تفجج للبول ، صارت فى لهجة الكلام « برطش » .

(ب) من بين الأخطاء التى قد تعرض للناشئين ، تغير فى ترتيب أصوات الكلمات ، وهو ما وقع بين العربية الفصحى ولهجة الكلام المصرية مثل :

بحلق : حملق . « بعزأ » : جاءت من تزعبق الشىء من يدى تبذر وتفرق . « الزعل » : جاءت من العلز بمعنى الضجر . ومثل « فعص » : التى

(١) أنظر كتاب الاصوات اللغوية صفحة ١٤٥ .

انحدرت من فصع الرطبة إذا أخذها بأصبعه فعصرها حتى تنقشر. ومثل «أهبل» : أبله . جنزبيل : زنجبيل . جوز : زوج . خفس : خسف .

كذلك يميل الأطفال فى نطقهم إلى تكرار المقاطع أو الأصوات. وقد أدى هذا إلى أن جاءت الكلمة العامية «التشويش» من «التهويش». وجاء الفعل «جرجر» من جرّ.

وكذلك قد يخطىء الطفل فى تقسيم العبارة إلى أجزائها الصحيحة. ويحدث هذا عادة فى العبارات الكثيرة الشيوع. وقد لوحظ هذا فى لهجات كثيرة من لهجات اللغات الأوربية. ويمكن أن نعزوا لهذا الخلط فى تقسيم العبارة، ما جاءتنا به لهجة كلامنا من أمثال الفعل «جاب» الذى لا نشك فى أنه انحدر عن الاستعمال الصحيح «جاء بكذا»، نخيل للطفل أن «الباء» جزء من الفعل «جاء»، ولا سيما أنه كان ينطق به فى لهجة الكلام بغير الهمزة. ومثال «عقبال» التى لا نشك فى أنها من الاستعمال «عقبى لكم»، فالتبس الأمر على السامع وجعل «اللام» فى «لكم» جزءاً تنتهى به الكلمة «عقبى»، وبهذا أخرج لنا كلمة «عقبال».

هذا وقد يصعب صوت «الراء» على كثير من الأطفال فيقلبونها إلى «اللام» فى كثير من الأحيان. وقد ترتب على هذا وجود كلمات عربية صحيحة متحدة المعنى رويت مرة «بالراء» وأخرى «باللام».

وقد حدث هذا أيضا بين لهجة الكلام المصرية، وبين بعض الكلمات العربية الصحيحة التى اشتملت على «الراء» مثل :

« الخدَر » بمعنى الشلل أو نوع منـه ، نسمعها الآن فى لهجة الـكلام « خدل وخدلان » .

ومثل « سرط » اللقمة بمعنى ابتلعها ، أصبحت الآن فى لهجتنا « زلط » ، بعد أن قلبت « الراء » « لاما » وجهر « بالسين » فأصبحت « زايا » .

ومثل « رهَط الطعامَ » صارت فى لهجة كلامنا « لهط » .

ومثل « دحرج » التى تطورت فى اللهجات القديمة إلى « دعلج » ، بأن جهر « بالحاء » فأصبحت « عينـا » وبأن قلبت « الراء » « لاما » ، وهكذا رويت لنا الـكلمتان فى المعاجم العربية على أنهما صحيحتان ، ثم تطورت الأخيرة منهما فى لهجة كلامنا إلى « دأْلج » .

(حـ) قد يخطىء الطفل فى قياسه ، وهنـا يولد لنا كلمات كثيرة بعيدة عن الصواب . فأحياناً يشتق وزنا للصفات لا وجود له فى الفصحى مثل « دبلان » بدلا من « ذابل » ، ومثـل « مرشوم » بدلا من « مرشم » التى هى من أرشم الشجر أى ظهر ثمره ، ومثل « غرقان » بدلا من غرِق ، ومثل « رجل لطخ » بدلا من « اللطخ » وهو القذر الأكل ، ومثل « حدق» بدلا من « حاذق » .

وليس هذا بغريب لأننا قد نسمع بعض أطفالنا يقولون « البلحة الأحمرة » بدلا من « حمراء » .

كذلك قـد يخلط الناشئون بين الجمع والمفرد فيستعملون بعض الجموع ، التى جاءت صيغتها شبيهة بصيغة المفرد ، مفرداً مثل :

برام . حق . كراس . زناد .

فهذه كلها جموع فى اللغة الفصحى ؛ ولـكنها تستعمل فى لهجة الكلام مفردات .

أما مفرداتها الصحيحة فقد أهملت وهى على الترتيب :

بُرمة . حُقة . كراسة . زند .

ومما يمكن أن يعزى إلى القياس الخاطىء اختلاف الحركات فى بنية الكلمة بين لهجة الكلام واللغة الفصحى :

فنحن الآن نسمع الكلمات الآتية مفتوحة الأول فى لهجة كلامنا ، وذلك لأن بعضها قد قيس على البعض الآخر :

خرطوم . شمروخ . طرطور . أزميل . برميل . بطيخ . خنزير . قنديل . كبريت . منديل . مسطرة . مروحة . مدخنة .

وكذلك نسمع كلمات مضمومة الأول مثل :

خلخال . قبقاب . غربال .

وأخرى مكسورة الأول وهى كثيرة جداً مثل :

جبنة . حلبة . عجّة . علبة . حزمة . حلم . عش . دهن . فجل . دلو .

وربما يسبب الانسجام بين الحركات أن يكسر الحرف الأول من بعض الكلمات مثل :

جهيز . زبيب . كبير . جديد .

د — لعبت ظاهرة المخالفة Dissimilation فى لهجة كلامنا دوراً هاماً ، كما ظهر أثرها فى اللغة الفصحى[1] . فقد تخلص الناس من إدغام المتماثلين بقلب أحدهما إلى أحد الأصوات الشبيهة بأصوات اللين وهى « الميم واللام والنون والراء ، وربما العين أيضاً » ، وتلك هى الأصوات التى سماها القدماء بالأصوات

(١) أنظر كتاب الأصوات اللغوية صفحة ١٣٩.

المتوسطة . فانظر مثلا إلى الفعل الفصيح « برّق بصره » أصبح فى لهجة كلامنا « برّنأ ». وكذلك الفعل « تنجّس » الذى يعنى تـكبر وتعظم ، صار فى لهجة الـكلام « تفنجص » . وكذلك الفعل « كبّل » صار « كعبل » .

وربمـا زيدت هذه الأصوات على بنية الـكلمات للمبالغة فى معناها مثل : « شرمط الورق » التى جاءت من الفعل الفصيح « شرط » . ومثل « طلمس الكتابة » جاءت من « طلس » الـكتاب محاه ليفسد خطه . ومثل « غطرش » التى تعنى فى لهجة الـكلام تجاهل ، قد جاءت من « الغطش » وهو ضعف البصر . ومثل « خرشم » التي جاءت من « خشم » الأنف أى كسره .

هـ — هذا وقد شاع فى لهجة كلامنا تلك الأفعال الرباعية التى تشتمل على مقاطع متـكررة ، فى حين أن بعض الصيغ القـديمة للأفعال قد تلاشت ، ولم تعد تسمع فى لهجة الـكلام المصرية .

فصيغة « أفعلَ » لا نـكاد نعثر عليها فى لهجـة الـكلام ، بل حلّ محلها صيغة « فعّل » أحياناً أو صيغة الرباعى المـكررة الأصوات . فانظر مثلا إلى الأفعال العربية الصحيحـة : « ألحم » الرجلُ بالمـكان أى أقام ولم يبرحه ، و« أرشم » الشجر أى أخرج ثمره ، و « أسبط » الرجل أى انبسط على الأرض ، و « أنعشه » الشراب .

فقد صارت هذه الأفعال فى لهجة الـكلام على الترتيب .

تلحم . اترشم . سلبط . نعنش .

وكما أثرت العوامل المتقدمة فى التغيرات الصوتية للهجة الكلام ، قد أثرت أيضاً فى اللهجات العربية القديمة مما أدى إلى رواية كثير من الـكلمات الفصيحة

مرة « بالميم » وأخرى « بالباء »، أو مرة « بالراء» وأخرى « باللام » ، أو مرة بالأصوات المجهورة وأخرى بمهموسها ، أو مرة بأصـــوات الإطباق وأخرى بنظائرها من أصوات الاستفال . كذلك روت المعاجم كلمات متحدة المعنى والأصوات ، ولكن ترتيب الأصوات فيها مختلف ، وكذلك رويت لنا كلمات يجوز فتح أولها وكسره أو فتحه وضمه ، بل أحياناً تنص المعاجم على التثليث في مثل تلك الكلمات وهكذا .

فما حدث من تطور صوتي في لهجة كلامنا ، حدث مثله في اللغة الفصحى في معظم الأحيان ، ولكن الكلمات قد تشقى وتسعد كالإنسان !

فتلك التطورات الصـــوتية التي تمت في العصور التي سماها الرواة بعصور الاحتجاج ، قد اعترف بها ، وأقرتها المعاجم ، وعدّتها من الكلمات الفصيحة ، في حين أنها رفضت نفس التطور الصوتي في العصور التي تلت هـذا ، وذلك رغبة في الوقوف باللغة العربية عند حدود العصور الأولى للاسلام ، ظناً منهم أن التطورات الصوتية القديمة كانت من فعل الأعراب الفصحاء أصحاب اللغة ، ولم يدر بخلدهم أنه تطور طبيعي للأصوات ، سواء أحدث في العصور القديمة أم الحديثة ، وأن الأعراب القدماء لم يعمدوا إليه عمداً ، أو قصدوه في كلامهم وهم يشعرون به . ولو قد قدر لتلك الكلمات العامية التي ذكرناها هنا أن يتأخر بها الزمن ، وأن يتم تطورها الصوتي فيما سموه عصور الاحتجاج ، لاستحقت من الرواة كل عناية ، ولرووها في معاجمهم ، وأصبحت فصيحة مقبولة .

على أن لهجة كلامنا قد اختصت ببعض التطورات الصوتية التي لا نعرف لها نظائر في تطورات اللهجات القديمة ، مثل عنايتها بتلك الأفعال الرباعية المتكررة

المقاطع . فقد ملئت بها لهجة كلامنا ، واتخذت فى أفواهنا طريقاً خاصة ، لا نظير لها فى غيرها من اللهجات العربية قديمها أو حديثها .

وتلك الأفعال تتكون من مقطعين ساكنين [1] ، ونلحظ أن المقطع الأول منهما مفتوح دائماً ، فى حين أن المقطع الثانى تتوقف حركته على الأصوات المجاورة : فأحياناً نراه مفتوحاً وذلك إذا جاوره أحد الأصوات الآتية :

الظاء . الصاد . الضاد . الطاء . الراء . الغين . الخاء . الحاء . العين .

فى حين أنا نراه مكسوراً مع باقى الأصوات الهجائية .

ولهذه الأفعال الرباعية أشكال عدة فى لهجة كلامنا .

(١) فأحياناً يكون المقطعان متماثلى الأصوات مثل :

جرجر . تكتك . بجبج . بربر . بصبص . بسبس . تعتع . تفتف . تلتل . تمتم . تنتن . حتحت . رجرج . رخرخ . رصرص . رطرط . رعرع . رمرم . زحزح . زعزع . زغزغ . زلزل . زمزم . سخسخ . سلسل . سمسم . شبشب . شرشر . شمشم . فحفح . ضعضع . طبطب . عضعض . فتفت . فلفل . كشكش . لحلح . لخلخ . لفلف . لملم . مصمص . مضمض . نخنخ . نسنس . نغنغ . وسوس . وشوش .

(٢) وأحياناً يتكرر صوت واحد من أصوات الكلمة ، بحيث إما أن يكون الصوت الأول والثالث متماثلين مثل :

---

(١) أنظر معنى المقطع الساكن والمقطع المتحرك فى كتاب الأصوات اللغوية صفحة ٨٧ .

بربش . جنجل . رهرط . سمسر . زمزأ . كركب .
خمض . مرمط . مسمر . مرمغ . نعنش .

أو بأن يكون الصوت الثالث والرابع متماثلين مثل :

بقشش . دغشش . زقطط . عكنن .

(٣) وأحياناً يتكون الفعل الرباعى من أصوات مختلفة ، ولكن أحد هذه الأصوات يكون فى غالب الأحيان من الأصوات الشبيهة بأصوات اللين مثل :

برتع . بريأ . طرشق . حمرأ . خربش . درمغ . سلطح . سمكر .
شلفط . زنهر . زمجر . زروط . عربد . عرقص . هرول . مرجح .
بعزأ . بهدل . بزوط . بحلق . طسلق . شعبط . شعلق . شقلب .
شعوط . غتلم . فشخر . فشكل . لخبط . لخفن . لغمط . نعبش .

— ٢ —

تطور المعانى

أشرنا عند التحدث عن الترادف إلى تطور الدلالة ووقوعه فى اللهجات القديمة ، مما أدى إلى تلك الظاهرة التى نسميها بالترادف .

وربما كان خير مثل نسوقه هنا لنبين إمكان تطور المعانى فى كل لهجة ،

ما حدث لـكلمات كثيرة عربية الأصل ، وذات معان خاصة فى اللغة الفصحى ، من تطور معانيها بلهجة كلامنا . فهى أمثلة حية ترينا كيف اختلفت معانيها بفعل تلك العوامل التى تحدثنا عنها آنفا .

وقد يصعب علينا إدراك تطور المعانى فى اللهجات القديمة ، لبعد العهد بيننا وبين الزمن الذى تم فيه هذا التطور ، وجهلنا التام بتاريخ الـكلمات العربية . ولـكننا حين نتتبع معانى كثير من الـكلمات العربية الأصل ، ونقارنها بما صارت إليه فى لهجة كلامنا ، نستطيع بسهولة ، أن ندرك كيف يمكن أن يتطور معنى الـكلمة ويتغير .

ونحن عادة نرفض المعانى الحديثة ونسميها مولدة ، وننكر عليها فصاحتها ، لا لسبب سوى أن الزمن قد تأخر بهذا التطور ، فجاء بعد ما سماه الرواة بعصور الاحتجاج .

ولو لا أننا نتقيد بالمعانى القديمة ، ونقف عندها لا نعترف بأى تغيير يلحق معناها ، لقبلنا المعانى المولدة ، وعدت من صميم الـكلام الفصيح ، إذ ليست فى الحقيقة بدعاً فى التطور اللغوي ، ولـكن كل ما فيها من عيب فى نظر الرواة ، أنها جاءت بعد فوات الأوان . فلتمسكنا بالمعانى القديمة ورغبتنا فى التقيد بها ننظر إلى المعانى المولدة شزراً ، ونتحاشاها فى أساليبنا الجدية . بل لقد أبقت بعض الـكلمات العربية على معانيها القديمة واحتفظت بها ، ومع هذا فقد تحاشاها الأدباء ونسبوا إليها صفة العامية ، فأصبحت مبتذلة مثل : « خش » بمعنى دخل ، ومثل « مقشة » بمعنى مكنسة !!

وقد اتخذت بعض الـكلمات المولدة طريق التخصيص فى معانيها مثل :

« باش » التى كانت تعنى اختلط ، فأصبحت الآن فى لهجة كلامنا تعنى اختلاط بعض المواد بالسوائل . ومثل « بطحه » التى كانت تعنى ألقاه على وجهه ، وتستعمل الآن مرادفة للكلمة العامية « عوّر » ، لأن من مستلزمات البطح فى غالب الأحيان « التعوير » . ومثل « حَوش » التى كانت تعنى جمَع مطلقاً ، فتخصصت فى لهجة كلامنا بجمع المال . ومثل « لحِاف » التى تخصصت الآن بنوع خاص مما يلتحف به . ومثل « رَبْــع » التى تخصصت بنوع خاص من الدور .

وقد لعب المجاز دوراً هاماً فى تطور المعانى لبعض الـكلمات العامية مثل : «الهمَج» التى كانت تعنى البعوض ، فأصبحت الآن تعنى فى لهجة كلامنا الفوضويين من الناس . ومثل « جيب القميص » التى كانت تعنى فتحة القميص ، فأصبحت تستعمل الآن في المعني المعروف المرادف للـكلمة العامية « سّيالة » . ومثل « رصرص » التى كانت تعنى ثبت بالمـكان ، فاستعملت بعد ذلك للشعور بالبرد . ومثل «سفرة » التى كانت تعنى طعام المسافر ، فأصبحت الآن مرادفة للخوان . ومثل «شنب » التى كانث تعني بريق الأسنان فأصبحت الآن مرادفة للشارب. ومثل « باخ » التى كانت تستعمل فى مثل « باخ الرجل » أى سكن غضبه و « باخت النار » أى سكنت ، فأصبحت تقال فى الموضوع المألوف لنا حين يشعر الإنسان بالخجل والخزى ... ألخ

إلى غير ذلك من الكلمات التى لا تـكاد تقع تحت حصر .

تلك هى أمثلة قليلة أردنا أن نسوقها لنحفز الهمم إلى الكشف عما قد يكون فى لهجات الكلام من طرائف ، لا شك أنها ستلقى ضوءاً على دراسة اللهجات القديمة وتجعل حكمنا عليها أقرب إلى اليقين .

فهرس

أهم المراجع الأفرنجية

(1) G. Noel - Armfield :

General Phonetics.

(2) Leonard Bloomfield :

The study of Language.

(3) Otto Jespersen :

a) Language (Its nature, development & origin).

b) The Philosophy of Grammar.

(4) Henry Sweet :

a) A Primer of spoken English.

b) History of English Sounds.

(5) Ida. C. Ward :

The Phonetics of English.

(6) D. Jones :

Outline of English Phonetics.

(7) Mallon :

Grammaire Copte.

(8) Harold. E. Palmer :

A Grammar of spoken English

أهم المراجع العربية

(١) ابن الجزرى

النشر فى القراءات العشر

(٢) سيبويه

الكتاب

(٣) ابن يعيش

شرح المفصل

(٤) ابن جنى

ا — الخصائص

ب — سر صناعة الإعراب

(٥) السيوطى

ا — المزهر

ب — الإتقان فى علوم القرآن

(٦) ابن فارس

الصاحبي فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها

(٧) اليازجى

نجعة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد

(٨) ابن خلدون

المقدمة والتاريخ

(٩) القلقشندى

صبح الأعشى «الجزء الأول»

(١٠) الفيروزابادى

القاموس المحيط

(١١) ابن منظور

لسان العرب

(١٢) ابن الأنبارى

ا — كتاب الأضداد

ب — كتاب الإنصاف فى مسائل الخلاف

(١٣) مجلة مجمع اللغة العربية الملكى « الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣ »

(١٤) جورج زيدان

تاريخ آداب اللغة العربية

(١٥) حفنى ناصف بك

مميزات لغات العرب

(١٦) الدسوقى

تهذيب الألفاظ العامية

(١٧) الدكتور أحمد عيسى بك

المحكم فى أصول الكلمات العامية

(١٨) محمد فخر الدين بك

مجموعة من الخرط التاريخية لبلاد العرب

(١٩) أحمد أمين بك

ضحى الإسلام

(٢٠) الدكتور على عبد الواحد وافى

ا — علم اللغة

ب — فقه اللغة

إصلاح الخطأ

صفحة	سطر	
٢٠	١٥	اللغات فى مهدها .
٣٣	١	ولما جاء عهد التدوين .
٣٣	١٠	هذيل .
٦٠	٨	قرئت على الترتيب : يواخذ . الفواد . هزوا .
٦٤	٧	الأمر إلا طاعةُ الله .
٦٦	١١	ولا يعقل أن صاحب السليقة .
٦٨	١٥	Diphthong .
٧٨	١١	كما أن بينهم .
٩٧	٧	لما جبلوا عليه .
١٠٠	٦	قبلها .
١٠١	٤	جزءا من بنية الكلمة .
١٠٣	١٤	إنا أنطيناك .
١٠٧	٥	فى معظم ال[illegible]
١٣٠	١١	وأخرى تقول قنِط يقنَط .

